غيورغي غوسبودينوف

وحِكَاياتٌ أخرىٰ

ترجمة: خيري حمدان

مكتبة

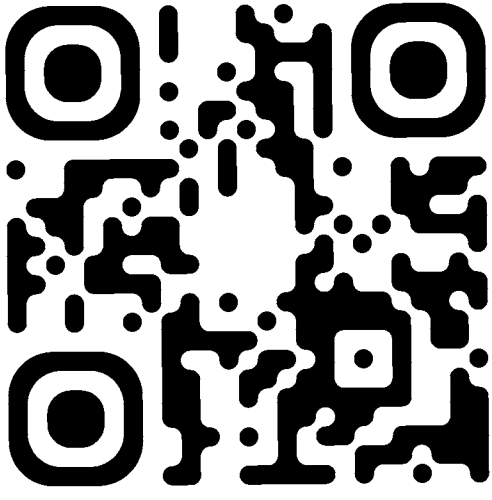

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

وحكاياتٌ أخرى

وحكاياتٌ أخرى / قصص

تأليف: غيورغي غوسبودينوف

ترجمة: خيري حمدان

الطبعة الأولى: 2022/ 1444

الردمك: 978-603-91904-1-7

رقم الايداع: 1444/ 1435

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

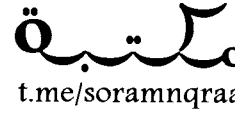

t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

وحكاياتٌ أخرى

قصص

غيورغي غوسبودينوف

ترجمة

خيري حمدان

مكتبة

t.me/soramnqraa

مبادرة ترجم

أثر

مكتبة
t.me/soramnqraa

ما الذي يمكن إضافته لهذه الحكايات قبل أن ترتقي الذكرى المرتبطة بنسج كلّ منها. على سبيل المثال أنّ غالبيتها قد كُتب في ساعات العصر. في تلك الساعات الساكنة الكسولة، في رحب تلك البقعة العمياء من النهار المؤهلة لنقلك إلى كلّ مكان..

صدرت النسخة الأولى من الكتاب علم 2011 مع بداية القرن الجديد، صدرت بالتزامن مع النسخة الثانية من كتاب «رواية بديهية». وكان من الممكن أن يظهر العنوان ويُقرأ مشتركًا «رواية بديهية وحكايات أخرى». الحكايات القصيرة «ذُبابة في المِبْوَلة»، «حكايتي مع محطة قطار»، «حكاية أخيرة من التسعينيات» نُشرت على صفحات مجلة «الصحيفة الأدبية». ظهرت الترجمة الإنجليزية لقصة «ل» في المختارات السنوية لمجلة «Eric Queen Mystery» وحصلتُ وقتها على أوّل شيك من الولايات المتحدة الأميركية، عندها شعرت لأوّل مرّة بأنّني شاندلر ولأسباب غبية لم أستمر الكتابة في صنف أدب الجريمة والغموض وبقي هذا الشيك الوحيد الذي استلمته في حياتي. كُتب جزء من هذه القصص لصالح مجلات مختلفة بعضها لم يعد له وجود (لست أنا المسؤول عن فنائها) لكنّي أدين بذكرها على الأقل. مجلة «فيتامين ب» التي نشرت قصتين (الليلة الثامنة، عن طعم الأسماء). مجلة «فصل» نشرت حكاية «قمرٌ بلغاري». في بعض الحكايات كان غاوستين يظهر ثمّ يختفي كيفما يشاء. ظهرت النسخة الألمانية والتشيكية لهذا الكتاب تحت عنوان «غاوستين أو الشخص ذو الأسماء المتعدّدة». حكاية «قصّة ثانية

أخرى» اعتنت بالكامل بفكرة بلغارية هنغارية هي استمرارًا لحبكة الكاتب دييجو كوستولاني والمفتّش البلغاري المفرّغ للعمل على متن القطارات.

أمّا «روح عيد ميلاد لِخنّوص» فقد تصادف نشرها في مجلة دنماركية شهيرة، في الوقت نفسه ظهر خبر زواج الأميرة الدنماركية كأنّه مقدّمة لارتقاء خِنّوص بلغاري. تملّكتني الرغبة أن أعرف كيف اجتمع الموضوعان في وعي القارئ الدنماركي وكيف ترجمت الكلمة العامية «يدٌ في المؤخرة - أخرق». قصة «فاوانيا وأذن الفأر» نالت الكثير من الإعجاب والتأوّهات. أخبروني كذلك أنّ شاب وفتاة استخدما هذه القصّة في سيرة حبّهما. كان الشاب متردّدًا باعترافه لها وبادرت الفتاة بإهدائه هذه المجموعة وأشارت لقصة «الفاوانيا وأذن الفأر»، قالت له إذا لم ينجحا الآن فسيخطّان سيرة حياتهما في مطارات مختلفة ثمّ أعلنا بعدها الزواج على الفور.

يتبنّى الإنسان من دون تخطيط مسبق مسؤوليات مختلفة، والكاتب مذنب بصورة افتراضية لأنّه يغري القدر بطريقة أو بأخرى كأنّ جنون القدر الغامض أو حمقه زهيد. لكن لماذا أضفت للعنوان الرئيسي «وحكايات أخرى»؟ ما هي القصة المفقودة في بدء المجموعة التي تسبق هذا الجملة؟ وهل توجد قصّة سابقة حقًا؟ أعتقد أنّ كافّة القصص المدرجة في هذه المجموعة سواءً تطرّقت للذباب أو العاشقين أو «روح عيد ميلاد لخنّوص» جميعها هامّة. تمتلك كلّ حكاية حقّها بأن تُقصّ وتُسمع. في مكانٍ ما من هذا الكتاب يقول غاوستين: على الرغم من أنّنا خسرنا اللعبة على المستوى الاستراتيجي فإنّ الخطوات التالية لهذه الحكايات تؤجّل إلى النهاية حتى وإن ارتبطت بالدمار والفشل.

لكن لماذا حكايات وليس قصص؟ القصة ذات حبكة جيدة خاضعة لقواعد وأصول الكتابة. لكن (تاريخيًا) تسبق الحكاية القصّة فهي حيّة ولذا

فالحكاية لا ترقى للكمال ولا تتمتّع بالديمومة وتتميّز باللامبالاة. أعتقد أنّ هذه هي مواصفاتها القيّمة. الحكاية تحافظ على الذكرى في الفم الذي يسردها وللأذن التي تأويها.

يمكن لعنوان هذا الكتاب أن يُقرأ على النحو التالي:

غيورغي غوسبودينوف وحكايات أخرى إذا اعتبرنا أنّ الكاتب هو مجرّد حكاية ضمن هذه المجموعة لكنّها ليست بأيّ حالٍ من الأحوال أفضلها.

لم أستبدل حرفًا واحدًا في هذا الكتاب لكنّه ليس هو نفس الكتاب الذي ظهر قبل 12 سنة. أولا، لأنّ القارئ تغيّر. ثانيًا، لا يمكن لشخصٍ ما أن يمرّ مرتين متماثلتين في حكاية واحدة كما باح غاوستين بذلك شخصيًا.

ماذا بعد؟ يرتكزُ نصفُ ما سُرد في هذه الحكايات على أحداث تاريخية قديمة والنصف الآخر يعتمد على أحداث مختلقة، طبعًا لا اختلاف بين هذين النصفين وفي نهاية المطاف يبقى الأمر مرتبط برؤية المؤلّف.

لماذا هذه المقدّمة؟ وما الذي أردت البوح به؟ أبقيتُ على حضوركم (خطوة ساذجة) عند العتبة لأتمكّن من المغادرة ولتدخلوا أنتم. تأخير لقائنا هذا والتفاوت ما بيننا هو أحيانًا المعنى الحقيقي بأكمله في هذه الحكايات.

أتمنّى لكم قراءة ممتعة وشكرًا لحضوركم ولا شيء سوى ذلك.

علينا دومًا أن نقصّ حكاياتنا

بول ريكور

لا يمكن لشخصٍ ما أن يعبر حكاية واحدة مرّتين متماثلتين

غاوستين

الليلة الثامنة

في إحدى الليالي أقدم جدّه الثالث على رعي أغنامه بعيدًا عن القرية في سهل قصيّ عند مداخل غابة حرشية. غفا وبعد منتصف الليل في تلك اللحظات الغامضة المخيفة، شعر أنّ شيئًا ما يدفعه من فوق كتفه. فقد القدرة على الكلام وأصيب على الفور بالصمم. لكن لم يرَ أحدًا خلفه. إحدى الأغنام تململت واحتكت بظهره بيد أنّه أمضى ما تبقّى من عمره أصمًّا أبكم، وغالبًا ما كان يضحك في صغره حين يتذكّر تلك الحكاية.

إحدى الخراف.

سردها في مرحلة لاحقة لأنّها أكثر الحكايات المرعبة التي سمعها في حياته. ما الذي تثبته هذه الحكاية؟ تؤكّد أنّ الموت لا يمتلك دمغة على الجبين.

إحدى الخراف.

عاد في إحدى الأمسيات من العمل كعادته، وفي تلك الأوقات غالبًا ما يؤرّقه هاجس فقدانه البطيء لحاسة السمع. كما تصادف عدم قدرته على سماع دقّات الساعة ونغمة رنين الهاتف وبعض الكلمات الخافتة، حتى أنّهم باتوا يسخرون من مخاوفه. يفتح قفل الباب ومن الداخل تصدمه رائحة ثلاث منافض ملأى بعقب لفافات التبغ (كان قد دعا زملاءه لزيارته قبل مساء)، يتمدّدُ فوق الأريكة، يضع المذياع قرب أذنه ويشغّله، يضيء الجهاز لكن لا صوت يصدر عنه. يشغّل التلفاز على الفور، يشاهد امرأة ما تقرأ

آخر النشرات الإخبارية، لكنّه لا يسمع شيئًا، لا شيء.. وقبل أن يدركه الفزع بثوانٍ معدودة يستمع بوضوح لبعض الكلمات. *ما الذي حدث لك كي تصاب بالصمم*؟ سقطت تلك الكلمات من فوق من الطابق العلويّ من جاره الثمل على مدار الساعة، ذاك الذي لا يتوقّف عن التنكيل بزوجته. هذا بوح وإفصاح.

رفع الرجل صوت التلفاز وسمع بوضوح المذيعة تتمنّى له ليلة سعيدة. ثمّ تذكّر أنّ ضيوفه مازحوه ليلة الأمس بتعطيل صوت التلفاز. بعد سبعة أشهر فقد حاسّة السمع تمامًا وكأنّ الحدث مزحة.

السّيّدات والسادة،

لاحظتُ في العديد من المسامرات والأحاديث التي كنت أخوضها تفضيل الشخصيّ على العام، والمقرّر الثابت على العائم المؤقّت.

هكذا بدأ السيد خورخي محاضرته المسائية السابعة، معتمدًا على «عماه الشخصيّ المتواضع». اختار هذا الرجل مسبقًا العمى موضوعًا في الليلة السابعة، وإذا أردتم رأيي فهذا الموضوع تحديدًا شغل لياليه السابقة واللاحقة أيضًا.

العمى السيّدات والسادة كما تعلمون يمنح الكثير من الأولويات لمن يحسن استخدامه. على العكس من الصمم، وانطلاقًا من إصابتي المتواضعة لصممٍ نسبيّ سأتناوله بكلّ سرور وبالتفصيل في الليلة الطارئة الثامنة والأخيرة لهذا المنتدى.

هكذا أدركت متأخّرًا للغاية أنّنا نصرّ جاهدين طوال مسيرة حياتنا على المآسي التي يضعها القدر (أو أيّ مسمّىً آخر تمنحونه لهذه المؤسسة) في طريقنا بسخاءٍ ملفتٍ للنظر. أذكرُ حين كنّا أطفالا كيف اختلقنا لعبة تشترطُ

الاختيار ما بين شَرّين أو إساءتين. هل تفضّل البقاء بلا قدمٍ أو بلا يد؟ من البديهيّ أن تفضّل الإبقاء على اليدّ مع أنّي لا أقدر على تقديم إجابة دقيقة عن مصدر تلك البديهية. الخيار المحبط الآخر هو ما بين الأذن والعين. ما هو الخيار الذي تفضّله، أن تفقد مدى الحياة حاسّة النظر أو السمع؟

بعد تسعة عشر حول فقدت السمع بإحدى الأذنين وأصبت بطرشٍ جزئيّ متنامي مع مرور الوقت في الأذن الأخرى، أدركت هول تفضيل فقدان السمع يومًا ما أمام حاسة النظر.

السيّدات والسادة،

تذكّروا الآن إذا ما تمنّيتم انطفاءً بطيئًا لا يرحم، ضرورة الانتظار ولقاء ما سيأتي لا محالة باعتزاز وافتعال عدم الاهتمام. الانطباع منقطع النظير من آخر كلماتكم، الدمعة في عين الدنيا، طريق تفتّتكم. آها، ستتحقّق هذه الرغبة السيّدات والسادة، الإله يستمع لكلّ دعواتكم لكنّه نادرًا ما يفرّق ما بين الخير والشرّ.

هكذا مع اختياري في أحدِ الأيام للصمم وعلى مدى كلّ هذه السنوات حاولتُ أن أصحّح ما هو غير قابل للتعديل، أن أتحرّر من تلك العاهة. أفاد التشخيص إصابتي بالتهاب الأذن الداخلية (neuritis acusticus) مصحوب بضجيج دائم في الأذنين وفقدان مضطّرد لحاسة السمع، وعلى الأرجح الإصابة كذلك بتبعات وخيمة في الجهاز الدهليزي المسيطر على عملية الحركة والتوازن.

انقسم الأطباءُ المعنيون بمعالجتي خلال هذه السنوات إلى فئتين: صريحون وواعدون. الفئة الأولى: (لم يعد بإمكان أحد مساعدتك في الوقتِ الراهن). الفئة الثانية: (نهايات جهاز أعصاب الإحساس غير قادرة في الحقيقة على

ترميم ذاتها، لكنّ الجسد يمتلك طيفًا واسعًا من الناقلات العصبية، وهناك عقارات متنوّعة لتوسيع الأوعية الدموية ودعم عملية التروية في دماغ الإنسان..). اخترت الفئة الثانية بالطبع على الرغم من ثرثرتي العُصابية المتشكّكة.

هكذا سلّمت جسدي لإجراءاتٍ طويلةٍ متبادلة مستمرّة، وفي كلّ دورة علاجية يرتفع وقعُ الإحباط والأسى لديّ. أتعاملُ مع العقاقير كسلسلة من المسمّيات. أوحيت لذاتي أنّ القدرة الناجعة تكمن في كنهِ الأسماء، أدرجتُها في الممارسات التأمّلية الغرائبية مردّدًا طوال الوقت: نيفالين، دوزودريل، ديبازول، ترانكان، فاستاريل. ثمّ أعيد الكرّة: نيفالين، دوزودريل، ديبازول.. أردّد بصوت مرتفع لتدخل المسمّيات مباشرة من الأذن الخارجية عبر الأذن الوسطى (auris media)، ثمّ تنزلق في قناة استاكيوس، تعبر بسلام عبر المطرقة الدقيقة، ثمّ السندان وعبر رِكاب الأذن لتمنح خصائصها العلاجية لاحقًا لجهاز الأذن الداخلية المعقّد (auris intema).

هناك عند مدخل التيه العظمي حيث تقبع القوقعة (cochlea) كأنّها مينوتوروس يتوجّب على العقاقير أن تمرّ بسلام لتصل أخيرًا إلى العضو الحلزوني الذي يحتضن خلايا السمع الميّتة. من المقرّر كذلك في هذه المنطقة بالذات أن تحدث المعجزة وتنبعثُ الحياةُ ثانية في الجهاز. لكنّ الطاقةَ الصوتيّة الكامنة في تلك الأسماء غير كافية، لذا فضّلت اللجوء للعلاج الطبيعي بديلا جذّابًا عن تلك العقاقير مثل «الجين شين» المخلوط بغذاء ملكات النحل المستحضر من جبال شمال الصين، مساحيق الموميجو السوداء المستخلصة من الصخور في مرتفعات منغوليا، زيت الزيتون اليوناني الساخن، بلور اللبّان البلدي وحتى الوصفة الشعبية: روث المواشي المجفّف (مسخّن). عدتُ إلى القرن السابع عشر باحثًا عن وصفة أو إكسير واكتشفت الآتي:

إذا هسهست الأذن أهرس ورقة توت برّي نضرة، اخلطها مع العسل وزيت الزيتون، سخّنها ثمّ أنْقُطْ ومن الإوز قط.. وغيرها من الوصفات المؤكّدة (عند الإصابة بالصمم، اخلط دم ماعز وشحمها المُذاب ثمّ اسكب الخليط في الأذنين).

السيدات والسادة، نبدو مع المرض أطفالا في تفكيرنا ونهرع متهوّرين خلف البِدَع. في السنة السابعة من إصابتي ومحاولات علاجي المحكومة مسبقًا بالعقم تخلّيت عن كلّ شيء واستسلمت. لم يشتهِ أحدٌ حتّى الآن جسدي إلى هذا الحدّ كالصمم، لذا توقّفت أخيرًا عن صدّه.

انقلبتْ أذُني إلى باطني، إلى جسدي أنا الذي لم يعد يأبه بشيء واستمرّ بتصنيع وإخراج ضجيجه الخاصّ. إذا وضعت قشرة الصدف أو القواقع البحرية بالقرب من أذنك وضغطتها ستتكوّن لديك فكرة ما عن حقيقة تلك الرخويات، هل يمكنك الاستماع لأصوات عصيّة على حاسة السمع التقليدية السويّة، أو من المستَقْبِل الحِسّي عبر التحويرات التي فرضها المرض على هذه المستقبِلات لتصبح مولّداتٍ للغة وسردٍ جديد في الأذنِ المتحدّثة.

هكذا يا سادة أدار الرجلُ الشهمُ بكلّ ما تملكه الكلمة من معنى ظهره للمجتمع، كالمتسكّع السئم دِندي، رومنطيقيّ أصيب بحسرة عالمية. انغلق على نفسه أيّتها السيّدات كزهور التوليب التي تجمع وتُغلق كؤوسها مساءً وكذلك في الأحوال الجويّة السيّئة. هذا الفراغ الداخلي للجسد يتحوّل إلى درعٍ ناعمٍ زهريّ، يتحوّلُ إلى مشدٍّ للسلامِ الباطني.

أدركتُ حقيقةً أخرى، وهي أنّ فقدان السمع يعيد العالم إلى حدودٍ مرئية أقرب من سابق عهده، إلى ما قبل ثورة الاتصالات. يخرجُ الهاتف والمذياع عن الاستخدام. يفقد الأصمّ الصوت الملموس. تتحوّل المواساةُ إلى عالمٍ جديد قابل للتنبّؤ بحدودٍ تبلغ حتى ناظريّ الشفتين وتعابير الوجه

والإيماءات. عندها أيّها السيّدات والسادة تحتل العينُ دورَ الأذنِ بجدارة.

التحديقُ في الشفتين المعبّرتين تمكّنُ العينَ من التقاطِ الصوتَ في لحظة ولادته حين يخرج لتوّه من رحم اللحظة، عندما يتلفّعُ بجسدٍ مؤقتٍ وبالأحرى في لحظة تلفّعه بملامحِ جسدٍ آيلٍ للأفول. هكذا تلتقط العينُ بصورةٍ جيّدة الحرف «O» المكتنز جيّدًا. والحرف E المنبسط برفق. والحروف الصوتية الشفتائية التي تنطق بتماسِ الشفتين مثل B, P وغيرها. عين-أذن، عين أو أذن. في إحدى الليالي بعد أن امتنعت عن تناول أيّة عقاقير وأبقيت على فتات السمع قررت أن أكرّس نفسي بالكامل لجمع الأصوات التي يجب عليّ الاستماع إليها قبل أن يطغى الصمم على أذنيّ بالكامل. صندوق احتياطي من مجموعة ذهبية لتسجيلات كاملة يمكن تخزينها واستعادتها. إليكم جزء يسير من **قائمة الأشياء التي يجب عليّ سماعها:**

مطر خريفي يهطلُ في حديقة التفاح.

تنهدات اثنين في ليلة زفافهما الأولى.

صوت انشقاق البطيخ الناضج.

صوت تدفق وانبعاث بول الرجل.

حفيف انزلاق الحرير.

أزيزُ الذباب الممطوط في البيت الريفي في الساعة الثانية بعد الظهر.

السُعال المكتوم لِخنّوص مختنق بدمه فور ذبحه.

رنين الملعقة في كأسِ الخزف المترع بالشاي السيلاني.

تثاؤب الوالد قبل خلوده للنوم.

اندساس السحلية ما بين شجيرات الفراولة.

بقبقة الطنجرة فوق طبّاخ وقوده الخشب.

صرير قلم الرصاص فوق الورقة.

(...)

أخيرًا، ما الذي يمكنني قوله أيّتها السيّدات والسادة عدا عن أنّ صوت التصفيق حسب البروتوكولات غير وارد في هذه القائمة التي عرضتها عليكم للتوّ. أذني ترفض هذا الصوت وعيني ترى راحات الأيدي التي تجتمع وتفترق قط. حان الوقت لينفكّ جمعُنا وليبتعد «شهريار» عن الفندق الذي اختاره المضيفون بعناية لشخصي. وفي نهاية المطاف كلّنا هنا لنتبادل بعض حكاياتنا وندفع أجرة الفندق ليومٍ واحد ثمّ نمضي.

في إحدى الليالي وبعد أن أدرك بأنّه لا محالة سيفقد السمع نهائيًا قرّر أن يقتني قطّة. قرأ في كتابٍ ما أنّ القطط تمتلك جهاز سمع دقيق وغيرها من الأجهزة الأنيقة المائزة. يمضي سحابة النهار يراقب كيف تحفّزُ القطّة أذنيها تجاه الأصوات والضجيج الذي لم يعد قادرًا على سماعه. هكذا شعر بالطمأنينة والسكينة حاميًا نفسه من المفاجآت.

يحبّ أن يردّد أنّ القطّة هي كلبه. مرّ وقت معلوم وبدأ هذا الشخص يتخيّل كيف أنّ هذا الحيوان الأليف ليس قطّة وإنّما حاسّة سمعه المفقودة. بات يرى عبرها مجرّد أذنًا كبيرة تموء هي أذنه. في إحدى الليالي اختفى هذا الرجل مع قطّته ولم يره شخصٌ بعد ذلك. أفادَ أحدُ مشاهير المتسكّعين مذعورًا بأنّه شاهد شخصًا بالقرب من حاويات القمامة وفي الأقبية يحمل رأس قطّة وعلى الأرجح رأس قطّة كبيرة وجسد إنسان. لكن لم يصدّق أحد هذه الحكاية التي سرعان ما غيّبها النسيان.

الرجل ذو الأسماء المتعدّدة

الخطوات العابثة ودها هي الرابحة – غاوستين

لم يكن هناك أحد في المدينة يعرف كيف ومن أين ظهر وما اسمه الحقيقي! يختار الرجل الاسم المناسب لكلّ عمل يقوم به. وها قد انقضى عشرون عامًا منذ وصوله إلى هنا. البعض يؤكّد على أنّه في البداية وعندما كان سويًا أكثر من حالته الراهنة، صرّح بأنّ اسمه الحقيقيّ غاوستين. لكنّ غاوستين هذا لا يعني شيئًا لأهالي المدينة، لذا استبدلوا اسمه بآخر، «غوشو، غوشو مركز المدينة»، لكثرة تواجده هناك، واعتبروه أحد مجانين المدينة اللطيفين الهادئين، وغالبًا ما كان يُشاهد أمثاله في كافّة المدائن آنذاك. انتشرت شائعات تفيد بأنّ الرجلَ مصابٌ بلوثة لكثرة قراءته في مرحلة الشباب (هذا سبب كافٍ لتأكيد جنونه)، والرجلُ يعرف اليونانية واللاتينية ويُقال كذلك بأنّه قد تمكّن من قراءة كلّ ما كُتب بهاتين اللغتين. ساعدت الإشاعةُ الكثيرين على أيّة حال لتفسير قدراته الفريدة وصحّته الجيّدة.

غاوستين أو غوشو مركز المدينة يحبّ التنزّه ليس فقط في الساحة العامّة ولكن في السوق أيضًا (هو نفسه أطلق على السوق اسم المُجمّع) ويحبّ التفلسف في كافّة القضايا والمسائل، وكان من الممكن رؤية الكثير من الجماعات المتحلّقة في حضرته، يستمتعون بمعاشرته مصغين بانتباه لحكاياته. أهل المدينة يحبّونه ويقدّمون له الطعام وهو بدوره يدفع ثمن ذلك بمزيد من الحكايات وسرد الأخبار، وهذا مصدر رزقه لذا لم يخشَ يومًا آفة الجوع. منذ

وقت قريب والأهالي يتذكّرون حكايته عن الذبابة والدودة، وهما في الواقع ملاكا خلود سماويان يمثّلان أيضًا حالات التحوّل الأبدية، لأنّ جهديهما المضني مسخّرٌ لإعادة كلّ جيفة فانية إلى أديم الأرض. تعملان على تحليل المواد العضوية لمكوّناتها الأوليّة وكلّ ما هو غير عضوي خالد حسب غوشو.

يتذكرون أيضًا الندوة التي تحدّث فيها عن تلك الزهرة التي نمت ليس مصادفة دون قامة الإنسان، ليتمكّن الأخير من شمّ رائحتها الزكية حين يرغب منحنيًا لها تكريمًا وتبجيلا. أتعرفون لمن ينحني الإنسان حين ينحني أمام الزهرة؟ وإذا سارع أحدهم بالردّ «للزهرة طبعًا»، يضيفُ قائلا «وهل ينحني لهذه الزهرة فقط أم لكلّ الزهرات في الحديقة؟ وقد ينحني لزهرة مثالية بحدّ ذاتها تتواجد في مكان ما!». عندها يجدون أنفسهم في حيرة أمام تأويلاته وسيعترف هو أيضًا بعدم معرفته للإجابة الدقيقة وأنّ هناك ضرورة للبحث عنها مطوّلا. ويضيف: يمكن القول أيضًا بأنّك حين تنحني لشمّ زهرة، تنحني إكرامًا للمزارع الذي اعتنى بها». هكذا كان يتحدث والعدمُ رفيقه، من سيرة زهرة عابرة يقودك حيث يشاء في سبل التحليل والتأويل. لذا لم يبذل الكثيرون جهدهم للاستماع إليه باهتمام وتركيز ولم يفهموا كلّ ما يقول، لكنّهم يدركون بأنّ ما يقوله ليس هذرًا على الإطلاق.

يسألونه هل حقًا اسمك غاوستين؟ ويجيب: أحيانًا. لكن اسمه في أيام التسوّق هو سقراط. سيشرح عن طيب خاطر كيف أنّ أحدهم يمكن أن يحمل اسم «كراتيل» ويؤكّد على أنّ الأسماء صحيحة وفقًا للطبيعة، لكنّ كراتيل هذا يجهل أنّ الطبيعة متقلبة، وحسب الطبيعيات المتعدّدة، يمكن لشيء واحد أن يحمل تسميات عديدة ضمن علاقات مترابطة. في الواقع لا يمكن لأحد أن يتذكّر ويعيد ذكر كلماته بدقّة.

يجلس أحيانًا غاوستين أو غوشو مركز المدينة أو سقراط على الرصيف

أمام مدخل أحد المباني، يتناول من جيبه دفترًا جعدًا وقلم حبرٍ نتَفَ طرفه حتّى ازرقّ لسانه ليبصقه بعد ذلك. يكتب شيئًا في الدفتر، وإذا ما سأله أحدٌ في الأثناء «ماذا تكتب الآن يا سقراط؟»، سيجيب من دون أن يرفع رأسه: «أنا لستُ سقراط عندما أكتب بل أفلاطون».

هذه هي أنماط أحاديثه، ومن خلالها يقدّم الرجلُ معلومات جمّة للمواطنين، فأفلاطون بالنسبة إليهم أمرٌ غامضٌ وغير مفهوم والمثقّفون يربطون اسمه بالحبّ العذري فقط، الأمر الذي يرفضه هو جملة وتفصيلا.

إذا صادفه أحدٌ يومًا يصطاد السمك متفكّرًا في مياه نهر تونجا الخاملة، وسأله على سبيل المثال: «يا غاوستين، غوشو، سقراط أو أفلاطون، هل نلت نصيبك من اصطياد السمك؟» عندها يجيب بهدوء. «حين أكون بمحاذاة النهر لا يمكن لاسمي أن يكون سوى هيروقليطس». وسيضيف أيضًا «لا يمكن لأحد أن يصطاد سمكتين في نهر واحد».

من المؤكّد أن هذا الإنسان يغيّر أسماءه أكثر ممّا يستبدل ملابسه، ويرتدي بلوزة واحدة صيفًا وشتاءً ويسير دومًا حافي القدمين وهو محظوظ لأنّ الشتاء قصير في هذه الأنحاء. ذقنه ما تزال سوداء تنمو كما يحلو لها، مع أنّ البوليس حلقها لأكثر من مرّة لمخالفتها للذوق العام، لكنّهم تخلّوا عن هذه الممارسة فيما بعد وسلّموا بالأمر الواقع. لا ينام خلال ساعات الليل، بل يواصل مسيرته الطويلة في الساحات، يهبط إلى جسر الحديقة، يسير بمحاذاة النهر وغالبًا ما يلقي محاضراته أمام الضفادع لخواء المرافق العامة من البشر ليلا.

مع اقتراب رأس السنة يتحوّل لبابا نويل (وكاد أن يصبح فيما بعد سانتا كلوز). إدارة المتنزّه تقدّم له البزّة الحمراء ذاتها التي خيطت من لحاف، يعطونه جزمة طويلة ويرشّون ذقنه ببعض النخالة، ليسارع الأطفال بالتقاط الصور التذكارية معه. كان بإمكانه أن يرتدي البزّة الجديدة ويحتفظ بالاسم

الجديد لبضعة أيام، يبقي خلالها على ابتسامة مشرقة على وجهه وذقنه. راوي هذه الحكاية يفخر أيضًا بالحصول على صورة تذكارية معه، وهي الصورة الأخيرة التي التقطت أثناء أعياد الميلاد. بعد أسبوع وجدوه قد غرق في مياه كانون الثاني لنهر تونجا الباردة. لكنّ هذه حكاية أخرى، وقبل سنوات أخبرني صديق عائلة الدكتور أسيزوف حادثة شارك فيها الرجل ذو الأسماء الكثيرة. وهذا نصّ حكاية الدكتور (شارك بنفسه في أحداثها) كما دوّنتها في ذلك المساء.

كنّا قد اجتمعنا في مطلع شهر كانون الثاني مساءً عند هوميروس لنصحو من سُكرنا. هوميروس يمتلك مرآبًا أسماه «إلياذة»، وعلى مدخله درع أخيل القديم مطليٌ بالزنك، والدرع هو أحد أملاك المسرح، يشبه غطاء برميل لغلي الفواكه أكثر منه درعًا ولكنّ هذه حكاية أخرى. هوميروس صاحب ذوق فنّي ومن هنا جاءت التسمية. تأخّر الوقتُ بنا ولم يبقَ سوى ثلاثة أشخاص في المرآب، أنا وهوميروس وصديق آخر يعمل محرّرًا في صحيفة محلية ساخرة هو بحدّ ذاته يبدو دائمًا ساخرًا للغاية. نحتسي القليل ونتسامر، كنت قد بدأت بقصّ حكاية حين دخل علينا سقراط. تجلّت رغبته في ذلك المساء أن ينتحل اسم سقراط وناديناه كما يحلو له. دعوناه على الفور لينضمّ للمائدة وطلبنا له كأس نبيذ أحمر. قدّمنا له شوكة واقترح هو أن نشكّل ندوة مع اجتماعنا نحنُ الأربعة. حاول هوميروس أن يعترض، فهو يكره الشيوعيين والمؤتمرات والندوات، لكنّ سقراط أوضح بأنّ كلمة ندوة «Symposium» هي من أصول يونانية وتعني أيضًا احتساء الشراب ومداولة الحديث ما بين مجموعة من الأشخاص، وتعني كذلك وليمة. وافقناه على أن تبدأ الوليمة على الفور، ثمّ استحدث سقراط لكلّ منّا اسمًا، «أنت اركسياك» موجّهًا حديثه لي. من هو اركسياك هذا يا سقراط؟ سألت بدوري. «طبيب مثلك»

أجاب باختصار. ثمّ منح صديقي الساخر اسم أرسطو وكان يليق به حقيقة، أمّا هوميروس صاحب المرآب فنال اسمًا مجهولًا تمامًا - أغاتون، اسم أحد المضيفين في بلاتون.

كنت قد بدأت قصّ حكاية في مرحلة صباي عند مجيء سقراط وقرّرنا سردها حتى النهاية، وعلى الآخرين سرد حكاية لأوّل حادث مؤذٍ تعرّض له أو تجربة ذاتية مختلفة حسب رغبة سقراط. حذّرتهم من أنّ حكايتي مقرفة ولا تتناسب مع المأدبة، لكنّهم أصرّوا على سماعها حتّى النهاية، لذا مضيت في حديثي.

- كم كرهت مخلّل الخيار في طفولتي، لأنّ والدي يطلب منّي عادة أن أذهب للقبو لإحضار عبوات كبيرة من مخلّل الخيار كلّما قدم إلى بيتنا ضيوف، وحدي أدرك حجم الخوف الذي كان يعتريني في كلّ مرّة أهبط فيها إلى القبو!

تلقّت عائلتي يومًا دعوة لتناول العشاء مع شخصيات هامّة من كبار الحزبيين والمتنفذّين في المدينة. أذكر يومها أنّ والديّ بدآ بالتحضير لحفل العشاء منذ ساعات الظهر. استبدلت أمّي ثلاث فساتين، حتى تمكّنت من اختيار الأكثر مناسبة للعقد الذي وضعته خصّيصًا لذلك الاحتفال. أمّا والدي فجرح وجهه خلال الحلاقة تحت الأنف مباشرة وشتم طويلا في الحمّام. ألبسوني بدلة أنيقة أرتديها عادة في الحفلات الموسيقية والأعياد المدرسية. كدنا نتأخر لكنّنا وصلنا أخيرًا في الوقت المناسب. ضغطنا على جرس الباب، واستمعنا لمقطع من لحن أغنية «كاتيوشا» قبل الدخول. لن أشرح تفاصيل الأجواء الداخلية لبيت المُضيف وأرائك الجلد الفاخرة الكبيرة. شعرت بقلق والديّ أيضًا، لكنّي سرعان ما تناسيت كلّ هذا حين رأيت الابنة. يا لها من شقراء لطيفة وجذّابة! يا لها من مخلوق أشقرَ وعدا عن

هذا وذاك اسمها زينائيدا. حظينا بمكانة بين كبار القوم، قدّموا لنا في نهاية المائدة صحنًا من الخيار المخلّل وعصير الكرز وطلبت أم زينكا (اسم الدلال لزينائيدا) أن نستمتع بالرفقة لتقارب عُمْرينا. كنت خجلا للغاية ولم أتفوّه بكلمة واحدة وانشغلت بالتهام مخلّل الخيار كمبرّر لتمرّدي وعنادي. أعرف بالطبع ضرورة تجنّب الحديث خلال تناول الطعام، لم أشعر بالطبع بطعم المخلّل الذي سئمته وفي فترة قصيرة من الزمن التهمت كلّ محتويات الصحن أمامي. سألوني إذا رغبتُ بمزيد من المخلّل، هززت رأسي علامة الموافقة ولا أدري كيف أتيتُ على محتويات الصحن الثاني ثمّ تبعه ثالث.

شعرتُ بنظرات زينكا المندهشة من قدراتي الفائقة، نظر إليّ والدي أكثر من مرّة مستفهمًا، أمّي أوضحت بأنّي لم أبدِ سابقًا شغفًا بتناول الخيار المخلّل بهذا القدر من دون أن يتوصّلا إلى نتيجة مقنعة في نهاية المطاف. شعرت بالارتياح حين عرضت والدتُها علينا الذهاب لنلعب سوية في غرفة الأطفال. لم أعارض هذه المرّة وما أن أغلقنا باب الغرفة حتّى شعرت بألم **حادّ** في معدتي، تمكّنت من الانطواء على نفسي.. والمعذرة منكم خريتُ في لباسي على الفور. نظرتُ ببلاهة تجاه الفتاة المذهولة وهرعت إلى الحمام. أغلقت الباب بالمفتاح، فتحت صنبور الماء وطفقت بالبكاء. بعد قليل حضر أبي وأمي وحاولا إقناعي بفتح باب دورة المياه وكان من المستحيل أن أوافق على فتحه ومواجهة الحضور.

تمنّيتُ الموت في تلك اللحظة، تمنّيتُ أن أغرق في حوض دورة المياه وأن أفتح شلال المياه فوقي لأغوص في العدم نهائيًا. بعد ساعة ونصف الساعة وافقت على الحديث بحشرجة ووضعت شروطي للموافقة على الخروج. طلبت من الجميع الابتعاد عن الباب وإطفاء الأنوار في كافّة أنحاء البيت، وحين خيّم الهدوء والصمت من حولي فتحت الباب بنزق وقفزت بخطوات

سريعة نحو الباب الخارجي وهرعت إلى العتمة المخيّمة في الحيّ. يا للخجل! أن تخرى أمام أوّل امرأة فتيّة تقابلها في حياتك؟

ضحك الجميع حتّى دَمِعَت أعينهم لحكايتي خاصّة سقراط. حلّ دور هوميروس، عفوًا أقصد دور أغاتون ليبدأ حكايته، وسيذكر بأنّه يمارس هواية الكتابة سرًا، وهذا يعني حسب رأيه أنّ تعداد قرّائه يزيد بكثير عن هذا التجمّع لو قدّر لنصوصه أن ترى النور. على أيّة حال، هو أصغرنا وكان قد استقال حديثًا، حدّثنا عن مناسبة احتفال بعيد ميلاد أحد التلاميذ من الصفوف الابتدائية. عندما تناول التلاميذ الساندويتشات والفطائر قرّروا أن يمارسوا لعبة العبوة الزجاجية الفارغة، لعبة جريئة آنذاك واعترف أراغون أنّ الفضل يعود لتلك اللعبة ليحظى بالقبلة الأولى في حياته، لكنّها تحوّلت لحادث بل لمأساة في حضرة الجنس الناعم. أطفأوا الأضواء ليقبّل أغاتون الفتاة المعنية، عثر عليها بصعوبة في العتمة وتمكّن من تقبيل وجنتها. غرق المتواجدون في الضحك حين أناروا المكان، لأنّ آثار مسحوق الطماطم على شفتيّ أغاتون قد انطبعت على وجنة الفتاة، هذه التجربة أجبرت صاحبنا أن يحذر القبل طوال السنوات الثماني التالية. استحسنّا حكاية أغاتون ودعونا أرسطو ليبدأ حكايته.

حسب ما أذكر حكى لنا الرجل ما يشبه النكتة، لكنّ أرسطو أقسم إنّ القصّة حقيقية حتّى وإن بدت نكتة بل ويفخر لظرافتها. تعود القصّة باختصار إلى فترة انشغال أرسطو بالعمل كطاهٍ لعدّة سنوات في أحد المطاعم التابعة لفندق. في إحدى الأمسيات ارتاد المطعم مواطن وقح من صوفيا، نادى الطاهي للوقوف على قائمة الطعام، أجاب أرسطو مفاخرًا بقدرته على تحضير أيّة وجبة تخطر على بال الزبون، عندها طلب الرجل عين إبل مقلية بالبصل. تفكّر أرسطو قليلا وأجاب «بعد ساعتين ستحصل على طلبك».

وعده الضيف بمنحه مئة ليفا إذا تمكّن من تقديم الطبق المطلوب خلال ساعتين وإذا فشل فعليه أن يعتذر للضيف طوال المساء أمام ميكروفون فرقة المطعم الموسيقية. تشارط الطرفان وغادر الضيف للتنزّه في المدينة حتّى يحين الوقت المحدّد، وحين عاد بعد ساعة من الزمن وجد الزبون لدهشته ناقة تلتهم زهر البنفسج أمام الفندق وعينُها مغطّاة بقطعة قماش. دخل إلى المطعم حزينًا وأخرج الورقة المالية من جيبه، لكنّ أرسطو عاجله طالبًا منه أن يحتفظ بماله، لأنّه تمكّن من العثور على الناقة لكنّه فشل بالعثور على حتّى رأس بصل واحد في أنحاء الحيّ في هذه الأوقات من السنة.

(خسرت مئة ليفا لأنّي عجزت عن العثور على رأس بصل واحد) قال أرسطو، وكان عليه أن يعتذر للزبون رسميًا أمام ميكرفون الفرقة الموسيقية. جيّد أنّني لم أفقأ عين ناقة فرقة السيرك الذي يقوم بزيارة ترفيهية للمدينة في تلك الأثناء، وضعت العصابة على عينها لأفقد الرجل رشده ولم تكن لديّ نوايا سيّئة.

تلك هي حكاية أرسطو وأنا مصرٌّ حتّى اللحظة على أنّها من نسج خياله. أخيرًا جاء دور سقراط ليقصّ علينا حكايته، صمت في البداية لبضع دقائق وبدلا من سرد إحدى الوقائع طفق يبكي كطفلٍ صغير. سالت الدموع من عينيه واحترنا كيف نتعامل مع هذه الحالة؟ لكنّه هدأ بعد قليل، مسح دمعه بكمّ ردائه وقال بأنّه لا يمتلك حكاية شخصية واحدة، وأنّه قادر على قصّ الكثير من الحكايات التي وردت في الكتب ومناقشة القصص التي استمع لها للتوّ، لكنّه ومهما بحث في ذاكرته لن يتمكّن من استهلال قصة شخصية واحدة. قصصنا الخاصّة هي الخطوة الوحيدة القادرة على تأجيل النهاية المحتومة لوقت قصير محدود، ورغم أنّنا سنخسر اللعبة استراتيجيًا في نهاية المطاف، **إلا** أنّ الذكريات والحكايات بمثابة خطوات عبثية ستعمل

على تأجيل لحظة النهاية، حتّى وإن كانت ذات طابع كارثي ومأساوي، قال سقراط مبتسمًا وابتلّت عيناه بالدموع، ولم نكن نعرف وقتها بأنّ لقاءنا معه هو الأخير.

تلك كانت حكاية الندوة المثيرة التي أخبرنا بها الدكتور. بعد أيام من تلك الحادثة كنّا سنجد الرجل ذا الأسماء الكثيرة غريقًا في النهر. جسده متعلّقٌ بالأعشاب الغزيرة بالقرب من جسر الحديقة. يُقال بأنّه وخلال تنقلاته ونزهاته الليلية الطويلة قد شهد عملية قتل أو سطو وقد كثر هذا النمط من العمليات الإجرامية مؤخّرًا في أنحاء المدينة، وكان لا بدّ من التخلّص منه كشاهد. وربّما ببساطة، حاول القيام بخطوة استباقية لاصطياد السمك برفقة هرقليطس في إحدى تجمّعات نهر تونجا المسائية. في اليوم الثاني من وفاته ظهر نعي أعلن فيه عن وفاة غاوستين، غوشو مركز المدينة، سقراط، أفلاطون، هرقليطس، بابا نويل وسانتا كروز.

الخطوات الأولى

على الأرجح وبهدف الانطلاق من نقطة البداية، ذهب ليعيش وحيدًا في إحدى الجزر وأطلق النار على نفسه

روبرت كوفر «بدايات»

المرّة الأولى التي تعرّفت فيها إلى العالم الغيبي كانت في مرحاض القرية. مكان حارّ ومتوحّد يتواجد في نهاية ساحة البيت، معزولٌ بعيدٌ عن ضجيج الغواية العلمانية. شاهدتُ يومًا وأنا متمعّن عبر ثقب باب المرحاض السجن العميق تارتاروس (يتواجد حسب الأسطورة الإغريقية تحت جحيم هاديس. المترجم) من هنا وعبر هذا الثقب المعتم الذي يقود إلى الأسفل تجاه الحشد نحو الهشيم المشتعل، وكيف يتطاير ببطء الذباب الأخضر الضخم! تلمعُ هذه الشياطين القادمة من العالم الآخر لوهلة قصيرة في النور ثمّ تنطلق ثانية إلى الأسفل.

ومن فوق، عبر ألواح القرميد النادرة فوق السطح وبيوت العنكبوت الثقيلة تظهر صفحة السماء، ومن الأسفل تحتي مباشرة يستعرُ الجحيم والموت يشرح ويعبّر من تلقاء ذاته. حصدت السماءُ الأرواح من خلال صفائح القرميد والأجساد سقطت في سعير تارتاروس. هكذا كانت طبيعة العالم الغيبيّ الآخر.

جلستُ فوق الثغرة من دون اشمئزاز وقد صدمني ما استبصرت وهو أنّ

تارتاروس حسب جدّتي هو المكان الذي سنذهب إليه جميعنا يومًا ما ويتواجد ليس بعيدًا في الحديقة إلى جانب المنزل ونحن نذهب إلى هناك يوميًا. الكتاب الأول الذي تعلّمت قراءة حروفه هو «يوميات الثورة البلغارية». ليس لأسباب قومية لكنّ لدوافع متعلّقة بالسنوات السبع الأولى من حياتي حيث عشت في القرية وكان هذا الكتاب هو الوحيد المتواجد هناك. وكنت أخطّ الحروف على الصفحتين البيضاوين الفارغتين في نهاية الكتاب.

يرسم جدّي بداية الحرف بقلم كيميائيّ ثمّ أكتب الحرف فوق الرسم مباشرة. كان لساناننا زرقاوان كالطلاسم وفي تلك الفترة بدأتُ بقراءة «يوميات الثورة البلغارية». أقول مجدّدًا ليس لمجرّد الثرثرة ولكن لأنّ هذا الكتاب هو الوحيد الذي تواجد في أنحاء بيتنا القرويّ آنذاك. نسخة قديمة للغاية بغلاف صلب بنيّ اللون خيط بقماش.

الصفحات الأولى من 60 - 70 كانت مفقودة وعلى الأرجح نزعت من متن الكتاب لأهداف لاهبة حيوية. والآن أجد أنّ بعض الأجزاء قد اختفت إضافة لتفاصيل أخرى عن «المجلس الثوري البلغاري» وحتى منتصف جزء «العجوز تونكا». على أيّة حال لم يكن من المتوقّع الاستمتاع بهذه الأجزاء في تلك الآونة، لذا فإنّ هذه المصادفة جاءت لصالحي لألج على الفور في أتون الثورة. كان هذا الكتاب أكبر مغامرة في طفولتي. كتاب مغامرات في الوقت ذاته شبيه برواية «فارسٌ بلا رأس». تلا ذلك قراءتي للثائر بنكوفسكي والفرقة الطائرة (للأسف لم نمتلك سوى حمار آنذاك) هؤلاء كانوا أبطالي المفضّلين. مرّت تلك السنوات المعدودة التي حفلت بقراءة بهيجة سريعة وكنّا مجرّد قرّاء في الحديقة الآدمية.

هناك في حديقة البيت ارتفعت شجرة كرز خلابة وبعد القراءة الأولى لرواية «*تحت نير الاحتلال*» لإيفان فازوف. تخلّت تلك الشجرة عن طبيعتها.

غطّت كراتُ الكرز في نوم عميق في باطنها. طليتُ جذعها بالكلس للقضاء على اليرقات والديدان كيلا نخسر ساقها وقد أوضح فازوف هذه العملية بوضوح. في البداية تحفر بالمثقاب البريمي الدَوّار جذع الشجرة طوليًا، ثمّ تنفخ لإزالة نخالة الخشب وهاهي الأسطوانة جاهزة، تطرق مرتين أو ثلاثة بطوق معدني فوقها لتحصل بذلك على مخروط بلغاري، الطريقة السهلة الموصوفة مغرية للغاية. لكن وفي العام التالي جفّت شجرة الكرز نهائيًا، هكذا تفشل الثورات أحيانًا.

لم يجرؤ جدّي على مدى سنتين أو ثلاث سنوات أن يجزّ جذرها. في أحد الأصياف عدْتُ إلى القرية ورأيتها قد قطعت، لم يبقَ من الشجرة سوى جذرها وفرعٌ سويّ في المنطقة السفلى. منذ ذلك الحين أخذ جدّي يعلّق الجدي المذبوح على الفرع القويّ في عيد القسّيس غيورغي. كم أحببتُ رؤية قطرات الدم الكبيرة تتساقط فوق التراب خلال عملية سلخ جلد الجدي ثمّ يخرج جدّي أمعاء الجدي وأجهزته الباطنية الساخنة. حمى شجرة الكرز بطريقته الخاصّة لتتحوّل إلى ما يشبه النصب حيث تقام طقوس أضحية يوم القديس غيورغي.

هذا بالطبع هو التوضيح اللبق لهذه الحكاية، وقد يكون قرار العجوز براغماتي للغاية. لِمَ التخلّي عن شجرة كرز فاشلة ما دام هناك إمكانية لاستخدامها في أمورٍ ووظائفَ أخرى، على الأقل أن تُستخدم لتثبيت كلابات شبح الضأن. رضعنا منذ الصغر أسرار حرفة الكتابة وعلى ما يبدو فإنّ مطعم المحلّة هو المكان الطبيعي الذي سيشهد محاولاتنا الأولى للكتابة، هناك كان والدي يطلب يخنة فوارغ الغنم مع شراب الليمون للإفطار كلّ صباح. الطاولات مربّعة والملاءات المشمّعة محترقة بالسجائر هنا وهناك والمقطع المعدني حيث توجد الأواني زيتي لزج والزجاج متعرّق بفعل اليخنة

الساخنة، ينفخ الزبائن فيها لتبريدها ثمّ يحتسونها بضجّة مضيفين إليها الكثير من الخلّ والثوم.

هناك على لوح من الزجاج العضوي البلكسيجي الأزرق على الحائط قرأت للمرّة الأولى: الكتّاب هم جرّاحو الروح البشرية. عليهم أن يقطعوا من هذه الروح المتعفّن والمتحلّل منها. ما الذي تخفيه هذه العبارة؟ ما المعنى الخفيّ المسطور على هذا اللوح؟ أتهجّاها في كلّ مرّة خلال تناولي للحساء. ملعقة حساء - «جرّاحون»، واحدة - «متعفّن»، ثمّ أخرى - «متحلّلة».. إلخ. مكتبة سُر مَن قرأ

مذاق الحساء غريب ومائز. للمرّة الأولى استمعتُ لأوبرا «كارمن» و«ليلة موسيقية قصيرة» عند مدخل بيت زميلتي في المدرسة. المقطع مخزّن في الجرس الكهربائي الذي أحضره والدها من الخارج وكان يعمل سائق شاحنة على الخطوط الدولية. كنّا في الصفوف الأولى في المدرسة الابتدائية ونشعر بغيرة شديدة من إمكانيات والد هذه الفتاة. كان العالم الخارجي يعني لنا دولة أخرى مثل فرنسا أو إيطاليا، دولة بعيدة وجذّابة، هناك فقط يمكن شراء هذا النمط من الأجراس إضافة للعلكة الشبيهة بالسجائر وألواح الشوكولا الطويلة مثل كوع اليد.

شرح لنا أولوياء أمورنا بأنّ الدول الأخرى لا تمتلك طبيعة خلابة شبيهة بطبيعة بلادنا والألبان هناك ليست لذيذة. شاهدنا للمرّة الأولى هدايا - مجسّمات لبرج إيفل على هيئة ميزان حرارة للاستخدام المنزلي، لذا انطلقت تلك الدعابة عن المواطن البلغاري الذي حين زار برج إيفل دار من حوله مرارًا بحثًا عن ميزان الحرارة، في تلك الآونة لم تكن الدعابة مضحكة!

أمّا قوارب النقل المائية «الغوندولا» في البندقية فكانت مجرّد قناديل ليلية تصدح بألحان متنوّعة وهضبة أكروبوليس عبارة عن منفضة فخّار تقدّم أمام

الضيوف فقط. كلّ واحدٍ منّا امتلك لوحة «موناليزا» في غرفة نومه ولوحة «العشاء الأخير» في غرفة الاستقبال ولوحات لباقات من الزهور في أوساط طبيعية صامتة في المطبخ. كان ذاك هو القرن الذهبي لثقافتنا.

لذا احتضنا بِوَلَه فيما بعد جان بودليار ومن قبله السيمولاكرا «المحاكاة». هل يتوجّب علينا زيارة برج إيفل، مجسّم آخر للبرج بلا ميزان حرارة هذه المرّة. بدا لنا العالم مثيرًا للضجر أكثر من المتوقّع. طبعًا، موسيقيو بريمن ليسوا حاملون[1] بأجنّة، واسم مدينة «فرانكفورت أم ماين» لا يعني الشتيمة الشهيرة في بلغاريا[2]. والهنود الحمر لا يعيشون في الهند وبشرة الممثل غويكو ميتيش[3] ليست حمراء اللون وغيرها من المقارنات المؤسفة.

في نهاية المطاف يحضر شخصٌ ما ليخبرنا بتفاصيل ما شاهده في محيط بلدنا. شهدنا الكثير من الموت في تلك الآونة، الكثير من الفناء. لم يبقَ سوى تلك المقاربة الغريبة التي أصرّت عليها مدرّسة الجغرافيا وكانت توضّح لنا بمؤشّر طويل حدود بلغاريا فوق خارطة قديمة ممزّقة لتظهر لنا دومًا هيئة أسد مديرًا رأسه تجاه البحر (ومؤخّرته إلى الغرب حيث العاصمة) أسدٌ رهيب. الهدف من هذه الإيحاءات تحفيزنا لامتلاك الشجاعة الوطنية كما توضّح لنا لاحقًا ولترويع الشعوب الآخرى.

نحن بدورنا كنّا نخشى أن يستدير الأسد المتآكل على الخارطة نحو

---

(1) بريمن: يسمح الكاتب بالتلاعب بمعاني الكلمات، المفردة تفيد اسم مدينة في ألمانيا «بريمن» التي تعني باللغة البلغارية الحَمْل.

(2) ماينا: يتلاعب غوسبودينوف بمعاني الكلمات هنا أيضًا، فكلمة ماينا هي شتيمة تستخدم غالبًا في مدينة بلوفديف التاريخية.

(3) غويكو ميتيش: فنان أميركي من أصول صربية تقمّص شخصيات هنود حمر في الأفلام التي أنتجتها هوليوود.

مدرّستنا البائسة. خشينا نحن أيضًا في منطقة الجنوب الشرقي الواقعة عند أطراف الأسد، كنّا نتواجد في مكانٍ ما هناك. خشينا أن نطأ عفويًا على كفّيه الأماميتين العظيمتين أو أن نشدّ ذيلِ وحشٍ في إقليم الشمال الغربي. ثمّ أين يمكننا الهرب يا تُرى إذا وقف وانتفض هذا الأسد الهادئ المستكين؟ «أسدٌ طيّب.. أسدٌ طيّب» نردّدُ في ساعات المساء قبل أن نخلد للنوم، ونحن نعبر الأطلس وقلوبنا بين يدي مدرّسة الجغرافيا.

قصّة ثانية أخرى

بدأ كورنيل إشتي حديثه قائلا: عليّ أنّ أقصّ عليكم ذلك، في المرّة الأخيرة وعندما ظهر شخصٌ بين شلّتنا أفاد بأنّه لن يزور بلدًا لا يتقن لغتها.. نادرًا ما مررت بمثل هذه التجربة، لأنّني كما تعرفون أتحدّث عشرة لغات.. الحقيقة أنّني تعرّضت لهذه التجربة حين مررت ببلغاريا في طريقي إلى تركيا.

ديجو كوستولاني: المجموعة القصصية «كورنيل إشتي»

يتشابه كافّة المسافرين في القطارات الليلية التي تقطع حدود البلقان إلى حدّ كبير. يحاول خبير في العلوم النفسية القومية الوقوف على الاختلافات ما بينهم، لكنّه حدّد بعض الاختلافات النسبية في اللهجات، كما إنّ الشتائم والسباب ينتمي لجذر لغويّ واحد، عدا عن ذلك فهم غالبًا ما يدخّنون لفائف تبغ رخيصة متشابهة في قمرات القطار وكفى. لم تعد أوجه التشابه ما بين شعوب البلقان المتمثلة بتلك النبرة المتشكّكة المنتشرة على امتداد البلقان طاغية كسابق عهدها.

بعد المرحلة الانتقالية التي بدأت عام 1989 والتي شهدت حتى لحظة انطلاقها تجمّع العائلة السلافية البلقانية على شواطئ البحر الأسود ولنقل في مكوّن مثاليّ. الرجل بلغاري، الزوجة من التشيك. الأطفال هنغاريون، جميعهم قد انفرط عقدهم وأعلنوا عودتهم إلى انتماءاتهم وجنسياتهم القومية الأصيلة. أمثالهم أنجزوا العديد من الأمور المحظورة عشية تلك الحقبة معربين عن تقاربهم وأوجه ارتباطهم المعقّد، لكنّهم في اللحظة التالية تعمّدوا

الفرقة والتباعد وباتوا غير قادرين على تذكّر شيء من الماضي القريب.

اعتدت على فكرة أنّ رحلاتي بالقطار مرتبطة دومًا برفقة الجدّات والعجائز الثرثارات، فهنّ عادة ما يتذكرن حتى الملل تفاصيل الحياة طوال الخمسين أو الستين سنة الماضية، هنّ خالات مسنّات يسافرن برفقة كنائن عنيدات وغير ذلك من مختلف الشخصيات. أمّا السيّدات الجميلات فيجلسن دومًا في القمرات المجاورة.

هذه المرّة وحين دخلت إلى القمرة رأيت السيّدة ذات الشعر الكستنائي تجلس إلى النافذة، دققن النظر في بطاقتي معتقدًا أنّني قد أخطأت المقعد. لا، لم أخطئه. «هل هذا القطار هو بلقان إكسبرس؟» سألتُ قبل أن أتجرّأ على الجلوس في مقعدي. أومأت المرأة برأسها برحابة وابتسمت لي كما تهيّأ لي. نعم، لا يوجد خطأ وبعد قليل انطلق القطار.

القمرة شبه فارغة. أخرجت لفافة تبغ وعرضت عليها واحدة لكنّها أخرجت بدورها علبة سجائرها من حقيبتها. كنت على يقين من ضرورة أن أقول شيئًا ما، أن أتجاذب أطراف الحديث معها. أعرف جيّدًا أنّ أيّة بداية عادة ما تكون تافهة ومُبتذلة ومحكومة بالفشل مسبقًا، وغالبًا ما أسافرُ مطرقًا بناظريّ بين صفحات كتاب كيلا أجبر على مواصلة الحديث. العبارة الأولى التي تفوّهت بها فاجأتني شخصيًا.

– يسافر جدّي على هذا الخطّ طوال 48 سنة. كان يعمل مفتّشًا على متنِ هذا القطار. بدت نظراتُها محبطة، قد أكون مخطئًا في تفسيري هذا لذا قرّرت المضيّ في حديثي: أفخر جدًا بحكايتي هذه، أسردها مرّتين كلّ سنة خلال عيد الميلاد وعيد الفصح المجيد. بات الأمر بالنسبة لي بمنزلة طقس منتظم. هناك درج يخصّ جدّي وحده يحتفظ فيه بحقيبة التفتيش القديمة. جميعنا

نعلم جيّدًا ماذا تحتويه. يستلّ جدّي منها عددًا قديمًا مصفرّ من مجلة «صوت سكّة الحديد» الصادر عام 1939. يفتح المجلة يقدّمه لي وأبدأ أنا القراءة بدوري.

أقرأ قصّة بأكملها. أذكرُ بأنّها تحتلّ الصفحة قبل الأخيرة بأكملها، دوّنها أديب هنغاري وهي في الحقيقة ليست قصّة بالمعنى التقليدي بل جزء من رواية، هذا ليس مهمّا على أيّة حال. يتحدّث المؤلّف عن حوار خاضه مع مفتّش سكّة حديد بلغاري لبضع ساعات على الرغم من أنّه لا يفقه كلمة بلغارية واحدة. لم يدرك المفتّش هذه الحقيقة وشعر الهنغاري بالفخر والاعتزاز لمكره ومهارته الفائقة وكيف تمكّن من ترتيب المشهد والاستماع طوال ساعات لحديث وبوح المفتّش البلغاري الثرثار.

جميعنا يعرف أنّ المفتّش المعنيّ في هذه الحكاية هو جدّي ونعرف جيّدًا موقع الفقرة التي وصف فيها الكاتب الهنغاري جدّي «بلغاريّ سمين ذو شارب أسود». همهم جدّي معلّقًا بأنّ التوصيف قد اختلقه الكاتب من مخيّلته. يصمتُ الجميعُ عندما أنتهي من القراءة، يُشعلُ جدّي لفافة تبغ وبعد أن ينفث الدخان للمرّة الثالثة يبدأ سرد قصّته. يتحدّث ببطء وهو بالمناسبة حكواتي جيّد ونحن بدورنا نستمع إليه بانتباه وإجلال. استمتعُ دومًا باكتشاف التفاصيل الجديدة التي يضيفها في المناسبات المتجدّدة.

دخل مفتّش القطار القمرة وتوقّفت عن السرد. وسألت بعد مغادرته المرأة إذا كان حديثي مملّ لكنّها اكتفت بهزّ رأسها في إشارة لإتمام القصة.

– وهكذا يبتسم جدّي بشيءٍ من الغموض ليكمل تفاصيل لقائه مع الهنغاري من وجهة نظره الخاصّة. قال بأنّه قد تجوّل في إحدى الأمسيات في رواق القطار المتّجه إلى إسطنبول، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل

والمسافرون نيام يشخرون وفي قمرة الدرجة الأولى رأى سيّدًا يرتدي ملابس ثمينة ويدخّن. الرجل قصير القامة ذو ذقن حمراء، أكّد جدّي على هذا الوصف كأنّه بهذا ينتقم من عبارة «بلغاريّ سمين ذو شارب أسود».

كان جدّي قد دقّق وعاين تذكرته وأوشك على تجاوز قمرته، لكن يبدو أنّ المسافر قد تملّكته الرغبة بتبادل أطراف الحديث، أوقف جدّي وعرض عليه لفافة تبغ. فعل ذلك باللغة البلغارية، نعم ولكن الكلمات التي تفوّه بها هجينة وليست بلغارية قحّة. أعترفَ بأنّ السجائر كانت فاخرة «فلترها ذهبي» وهذا الصنف من اللفائف لم يكن معروفًا في بلادنا. تهيّأ له أنّ الرجل طيّب ولطيف، تقاطيع وجهه تدلّ على الكياسة، ابتسم وكان من الواضح أنّه ملّ الجلوس وحيدًا ولم يختلف الأمر بالنسبة لجدّي، لكن ما العمل فهو لا يتقن سوى اللغة البلغارية والفلاشكية بصورة ضعيفة وما هي المواضيع المشتركة بينهما؟

سأل جدّي السيد باللغة البلغارية، من يدري، فربّما يتقنها «من أين أنت؟ أتعرف لغتنا؟» ثمّ شكره على لفافة التبغ. أومأ الغريب برأسه معبّرًا عن مشاعر الصداقة وربّت على كتف جدّي. قدّر الأخير في تلك اللحظة بأنّه لا يعرف ولا حتى غرام واحد من اللغة البلغارية لكنّه أصرّ على عدم الاعتراف بذلك. حسنًا، كما يشاء. ربّما خشي أن يفقد الرفيق الوحيد في وحدانية السفر.

عندها خطر له، خطر له أن يبدو كأنّه قد ابتلع الطعم. بدأ الحديث عن كلّ ما يعتملُ في دواخله. كان على أتمّ الاستعداد للاعتراف والبوح بكلّ شيء أمام هذا الغريب، لأنّه لا يفقه كلمة واحدة من حديثه. حدّثه عن العسكرية وعن خدمته الطويلة في مؤسّسة سكك الحديث، حدّثه عن غريبي الأطوار الذين صادفهم في رحلاته، والرجل يستمع له بانتباه. قال جدّي (امنحنا نحن الشعب البلغاري الفرصة لنصرخ ونقاطع حديث الآخرين. آها،

هذا أمر بسيط لا يذكر. لعلّك تعلم... لقد واجهت الكثير من الحالات... لا يتركنا المتواجدون نكمل حديثنا.) أمّا ذلك السيّد فيمعن النظر محدّقًا بجدّي مبديًا رغبة كبيرة ألا يفوّت كلمة من حديثه. يبتسم في لحظة ما ويومئ برأسه في مقطع آخر من طيف السرد وبين الحين والآخر يردّد بالبلغارية «دا، دا. أي نعم». لا يلفظها بإتقان ولكنّ المفتّش لم يبحث عن عيوب في كلماته.

أظهر له بأنّه يتعامل معه كابن البلد وطاب له ذلك ولجدّي أيضًا. كان بإمكان المفتّش الإفشاء بكلّ ما يعتمل في صدره. الحقيقة أنّ الأشخاص الذين يمكنه التعامل معهم على هذا النحو معدودون، ويمكنه كذلك الصراخ في وجه هذا الرجل الجالس قبالته وشتمه وحتّى الشكوى إليه وهو سيتقبّل كلّ ذلك. أستنتج جدّي أنّ الأشخاص الذين يفهمونه بجدارة هم الذين لا يتقنون لغة المتحدّث. هو يستمتع بالحديث والمفتّش كذلك ويبدوان أفّاكَيْن ومع ذلك لا مانع لديهما.

يبدو أنّ جدّي قد استرسل وتشعّب في الحديث وبلغ به الأمر أن عرض أمامه الزرّين المعدنيَيْن (تطرّق الهنغاري أيضًا لهذه التفاصيل في حكايته). جدّي يحمل الزرّين دومًا أينما حلّ فهما يمثّلان ذكرى عزيزة على قلبه. الزرّان هما كلّ الإرث الذي حصل عليه جدّي من والده الذي قُتل في حرب البلقان ليس بعيدًا عن هذه المنطقة. لا يذكر جدّي شيئًا عن والده سوى القليل وهذان الزرّان من معطفه عزيزان على قلبه ولا يتخلّى عنهما أبدًا. قلّب الأجنبي الزرّين بين يديه وضحك، اعتبرهما مجرّد زرّين، لم يتمالك جدّي نفسه في تلك اللحظة وانحدرت الدموع سخية من عينيه كطفل صغير (حسب رواية المواطن الهنغاري)، لكن وحسب ما جاء على لسان جدّي، فقد رماه بنظرات نارية ثمّ استعاد الزرّين وتصعّد الموقف بينهما حدّ الضرب.

أضاف جدّي بأنّه قد انهمك بكلّ جوارحه بالبوح حتّى أنّه نسي بأنّ الأجنبي لا يفقه حديثه.

(نعم، سقطت في الفخّ الذي نصبته بنفسي. ثمّ شعرتُ بالحرج للقسوة التي تعاملت فيها مع الغريب. اعتذرت له ولم أكنْ على قناعة بأنّه قد فهمني جيّدًا. كأنّ لسانَيْنا فد اختفيا قبل قليل، تركناهما حلف ظهرينا وفهم أحدُنا الآخر من دون عناء، والآن وضع كلّ منّا لسانه أمامه كجدار كيلا تتمكّن مفردة واحدة من القفز فوقه. افترقنا بطريقة حضارية إنسانية لكنّي وحتى هذه اللحظة أشعر بالكدر وعدم الارتياح).

كانت تلك حكاية جدّي التي يقصّها خلال الأعياد مرّتين في السنة، في يوم الميلاد وعيد الفصح المجيد. جدّي لم يكن يعترف بأيّ أعيادٍ أخرى. تبيّن أنّ ذلك الرجل غريبٌ حقًا، وليس مجرّد مسافر عادي بل هنغاريّ كما أفاد جدّي، وهو يعتبرهم أقصى الأجانب بسبب لغتهم المعقّدة وتبيّن فيما بعد بأنّه كاتب.

عمل جدّي بعد تلك الحادثة في مؤسسة سكك الحديد طوال 30 عامًا لكنّه لم يتمكّن أبدًا من التقاء هذا الرجل ثانية ولم يجرؤ على الحديث بغبطة وسرور مع أيّ مسافر آخر كما أكّد لي بنفسه. في نهاية المطاف وقبل أن يردّد «بصحتكم» ينهي جدّي حكايته دائمًا بتلك العبارة التي نردّدها بصوتٍ واحد على المائدة: «*أترون أثر اللغة، اعتقد الآخر بأنّه قد تلاعب معي لعدم رغبته بالبقاء وحيدًا، ولعدم رغبتي أنا أيضًا بالبقاء وحيدًا ليتبيّن لنا أنّ لساننا قد أوقعا بكلانا، لكنّني لم أشعر بتلك السعادة أبدًا*». هذا ما كان يردّده جدّي المفتّش السابق ثمّ يهدر «*بصحتكم*».

تابعت تلك السيّدة حديثي بنظراتها كأنّها غير راغبة عن انتهاء الحكاية. قدّرتُ بأنّ نظراتها أكثر من مجرّد مجاملة، لم تتملّكني الرغبة بالقصّ والتعبير

ولا حتّى سرد نكتة مضحكة كما في هذا اللقاء. هذه المرّة نجحت في هذه المهمّة بجدارة. لكن ومع ذلك شعرت بأنّ لحظات الصمت التي تلت حكايتي مربكة وطويلة، أشعلنا لفافة تبغ. مدّت لي يدها فجأة لمصافحتي وقالت:

– My name is Kathrin. I don`t know your language but it was a great story.

حكايتي مع محطّة قطار

تتشكّل كافّة حكايات القطارات العالمية بسرد متماثل وغالبًا ما تشهد المراحيض المركزية لمحطات القطارات تفاصيل هذه الأحداث بمشاركة مواطنين من بلغاريا. محور هذه الحكايات يدور حول كيفية تجاوز البوابة الأوتوماتيكية الدوّارة لهذه المراحيض. تواجد مواطنونا في هذه الأنحاء يعني كذلك إلغاء آلية عمل هذه البوابات بقطع النقد المعدنية لتصبح مجانية.

يمكن من خلال استخدام قطعة نقدية واحدة انزلاق أجساد مجموعة كاملة بسرعة، الواحد تلو الآخر لقضاء حاجاتهم الطبيعية. في إحدى المرّات استمعت لحكاية دارت أحداثها في محطة قطارات ألمانية، ورد فيها أنّ البوابة لم تتحمل ضغط أجساد المجموعة وتعطّلت.

صاح المتواجدون داخل المراحيض وأخذوا يردّدون الكلمة الألمانية الوحيدة التي يعرفونها والتي تعلّموها من الأفلام الروسية القديمة وهي «achtung achtung» وتعني «انتباه، انتباه!». ما أدى إلى انتشار ذعر غير مسبوق في محطة القطارات الألمانية وإخلاء المتواجدين في أروقة الانتظار على الفور واستدعاء فرقة مكافحة الإرهاب.

هكذا، استمرّ المحصورون في الداخل يصرخون achtung achtung وفي الخارج أقدم آخرون على تطويق المنطقة بانتظار الانفجار.

الردّ على سؤال: أين نحن الآن؟ مماثل لهذه الحكاية. تنبعث من المرحاض أصوات تحذير، الجميع على يقين ممّا يحدث هناك، لكن لا أحد يجرؤ على فتح

الباب ولا أحد يغادر المكان، أمّا المَخْرَجُ الوحيد للمرحاض فيتواجد هناك في الأسفل تجاه الرصيف.

1996

كريستين المرأة التي تلوّح من القطار

هذا ما قرّرته، أن تلوّحَ بيدها لكلّ شخص. يمرّ القطار عبر أوروبا الوسطى في مكان ما بين جبال تاترا. انتابني إحساس في ثنايا المنظر السلوفاكي المتكامل وأكوام البرسيم المحصود والهندباء والبابوبنج والخشخاش المنتشر في أنحاء سكك الحديد، أنّ كافّة مؤسّسات سكك الحديد في أوروبا الوسطى تحقّق موازناتها من مبيعات الأفيون.

الشمس آيلة للمغيب والغسق في هذه السهول واعد يبشّر بعتمة لا تنتهي، وكريستين التي تطلّ من النافذة تتألّق مثل رقائق القصدير. خطر لي وحسب تصوّرات البعض يمكن لمجرّد رفرفة جناح فراشة أن يغيّر العالم.

التفتْ نحوي وقالت: أنا لستُ فراشة.. فما بالك بشريحة قصدير! تمتلك كريستين أحيانًا قدرات عجيبة خارقة. تطلّ من نافذة القطار وتلوّح بحيوية لقرويّ مسنّ غريب من مواطني أوروبا الوسطى. لاحظها الرجل، تردّد للحظة وتهيّأ لي أنّه ألقى بنظرات ناعسة تجاهها قبل أن يبادلها التحيّة.

- آه، يا سلام. استدارت كريستين وأضافت: أعتقد أنّني ملأت قلبه بسعادة غامرة.

- لقد اقتحمتِ حياتَه بكلّ عنفوان. أجبتها.

لعلّك تتخيّل الآن كيف يعود هذا الرجل إلى بيته عند زوجته المسنّة الغارقة بالسأم والكآبة. يقدّم الشعير للحمار وخليط من الطعام للخنزير

الصغير، يعيد الأغنام للحظيرة ثمّ يجلس في المقعد المتهالك لشاحنته الصغيرة أمام البيت، وطوال هذا الوقت لكم أن تتخيّلوا لم تغادر كريستين مخيّلته. عدا عن هذا وذاك تذكّره المسافرة الشابّة بامرأة من الماضي البعيد قابعة في عمق الذاكرة، لم يجرؤ القرويّ على التفكير بها منذ 38 سنة.

وطالما تفكّر في ذلك أكثر وأكثر خلال تناوله لجرعات العرق وقد امتدّت يده في الأثناء للقارورة، يتوصّل إلى قناعة بأن الأحداث قد انطوت في حياته بسرعة وبكلّ بساطة كمرور هذا القطار المسافر، والقطارات لا تقفُ في هذا المكان، في حياته الضئيلة القذرة المصفرّة كجدار مرحاض محطّة قطار.

في هذه اللحظة تحديدًا تخرجُ زوجتُه عند عتبة البيت مرتدية رداءَ الحمّام الوردي البالي وتصيح به للتوقّف عن شرب الخمر والحضور لتناول العشاء، وهو ينظر إليها متعكّر المزاج حتى أنّه لا يجد ما يكفي من المبرّرات ليقذف تجاهها قارورة الخمر. والآن يبدو القطار نفسه الذي عبر هذا المكان قبل 38 سنة يعود أدراجه ببطء ليمرّ من فوقه.

يعود ببطء شديد.

شعرتُ أنّ مخيّلتي قد تعرّضت لتواترٍ سريعٍ سادٍ فصمتّ. في تلك اللحظة انكمشت كريستين في مقعدها بجانب النافذة موجّهة نحوي نظرات ملأى بالهلع والخوف.

- هل أنتَ جادًا في حديثك؟

- لقد حذّرتكِ. لا يمكنك التدخّل في حياة الآخرين حتى وإن كان ذلك بمجرّد التلويح لهم بيدكِ من النافذة. أحيانًا ومن دون قصد قد تتسبّبين بتغيير مجرى حياتهم وأقدارهم.

- كلام فارغ. كم هو مقرف أن تحوّل أتفه الأمور لحكايات متباينة.

ومن أجل إقناعي بجديّة كلماتها أبانت رأسها ثانية من الشبّاك متعمّدة ولوّحت لحارس سكّة الحديد المناوب المرتدي بزّته الرسمية والواقف بسلام بمحاذاة القطار العابر للمكان. أبقى الحارسُ على وقفته الجادّة تلك واكتفى بملاحقتها بنظراته المعبّرة قبل أن تغيّبها السكّة، تابع بعينيه كريستين التي لم تتوقّف عن التلويح له بيدها.

كنتُ على يقين من بقائه في وقفته تلك لعدّة دقائق مديرًا رأسه إلى اليسار قدر ما يستطيع. بدت كريستين حقًا متألّقة في منظر الغروب المسترسل في تلك اللحظة.

- لماذا لم يردّ على تحيّتي، آ؟

شعرت بنبرة استياء في صوتها وفي عينيها نظرات اتّهام كأنّي أحتفظ وحدي بإجابة خفية في حكاية لا يعلم تفاصيلها أحد سواي. أوضحتُ لها بأنّه ينفّذ الآن مهام عمله وقد يؤوّلُ مهندسُ القطار تلويحه باليد بطريقة مختلفة. لكن على الرغم من كلّ ذلك فهو مُعجبٌ بكِ. أضفتُ بدوري. - وأؤكد بأنّه بالكاد منع نفسه من التلويح لكِ بيده.

عندها لاحت على وجهها إيماءة تشير لعدم اهتمامها البالغ بردّة فعل الحارس إذا ما أُعجب بها. لكنّها قالت بعد قليل بعفوية:

- إذا كان قد أعجب بي حقًا، فأولى به أن يردّ على تحيتي بالمثل مهما كانت النتيجة.

- أنا على قناعة من أنّه يشعر الآن بالأسف الشديد. لكن تخيّلي لو أنّه لم يمتلك نفسه ولوّح لك.. (كنتُ على وشك أن أضيف «كمهرّج» لكنّي خشيت إهانَتها باستخدام هذا التوصيف) مضيت بحديثي الحذر. - ربّما فهم مهندس القيادة إشارته بطريقة خاطئة ليختار بعد ذلك سكّة أخرى

موازية وعندها قد نطير نحن وإيّاك الآن تجاه قطار آخر يسافر على الخطّ نفسه. هكذا سيفقد الحارس أيّة فرصة أخرى للقائك ثانية. أعتقد أنّ كلّ هذا قد مرّ بمخيّلته لوهلة ومنعه من التوليح بيده.

لا شكّ أنّ هذه الفرضية قد أعجبتها، لكنّها بقيت تنتظر منّي بقية الحكاية.

- إياكَ أن تحشو حكايتك بتفاصيل مرعبة كما في المرّة السابقة!

هدّأتُ من روعِها وأوضحت لها أنّ الحكاية الآن مختلفة تمامًا وأنّها قد تدخّلت بسعادة كبيرة في قَدَرِ الحارسِ الشابّ. وجدتُ نفسي مجبرًا لأوضّح لها وبالتفصيل المملّ أنّ الحارس ومنذ هذه اللحظة لن يتعامل مع القطارات باعتبارها وسائل نقل عابرة، لكنّها رسلٌ لأجمل ما شاهده وعاينه في حياته.

وسيبقى على قناعة أنّ المسافرين من الآن فصاعدًا سيتعرّفون إلى الحارس المناوب باعتباره شخصية عاشقة ينقّل نظراته في نوافذ القطارات السريعة.. خلال سردي لهذه الحكاية، فوّتت كريستين الفرصة للتدخّل في حياة عائلة شابّة بحوزتها عربة طفل رضيع، وثلاثة من صغار الغجر يلوّحون بأيديهم بمحاذاة الحاجز بحيوية، وجدّة وكلبان.

ذُبابة في المِبْوَلة

في أحد المراحيض الألمانية لقسم الرجال، يُفهمُ من ذلك أيضًا المِبْوَلَة التي بدت على النحو التالي: نظيفة لامعة، هذا لا يخفى للعيان بالطبع لكن في منتصف كلّ منها ذبابة.

في الوهلة الأولى يستدعي ذلك القرف تراجعَ الرجل عن قضاء حاجته، ثمّ يلاحظ المعنيّ أنّ الذبابة مجرّد رسم متقن في منتهى الواقعية. ا

لذبابة تنفّذ وظيفتين: الأولى تؤكّد بحضورها غير المنطقي على المفهوم الألماني المثالي لتعقيم المرحاض، في هذه الحالة حوض المِبْوَلَة.

الوظيفة الثانية برغماتية وقد جهدتُ لفهم ذلك، إذ يتوجّب على الرجل الواقف أمام المِبْوَلَة أن يحدّد هدفًا يسدّد عليه والذبابة هدف جيّد وسمج ومزعج. هدفٌ يسعى الرجل لا إراديًا للقضاء عليه. اعتمادًا على هذا النظام الثنائيّ البسيط «هدف - القضاء على الهدف» فإنّ إمكانية تشتّت التصويب والقذف العشوائي تتراجع لعدّة مرّات. هكذا تصيب الذبابة من ناحية ويبقى المرحاض نظيفًا ويشعر الرجل بالرضا والقناعة.

كلّ هذا حدث في مرحاض ألماني موسوم برسم ذبابة، لكن ماذا عن مراحيض البلقان؟! (يسمّونها هنا دورة مياه وهذا صحيح).

أولا: الذباب كثير. ثانيًا: الذباب حيّ يرزق. ثالثًا: الذباب لا يستقرّ في مكانٍ واحد.

هنا نأتي إلى نهاية الحكاية لأنّ القرّاء المشمئزون سيعانون من الغثيان، وستشعر السيّدات بأنّهنّ مستثنيات، والتشبيهات رمزية وعلى أيّة حال لا توجد حكاية بريئة.

1999

مكتبة
t.me/soramnqraa

عن طعم الأسماء

تدورُ الحكاية حول مدى أهمية الأشياء التي لا نعرفها وعن أهميّة المعاني التي تحملها أسماؤها. في هذا السياق فإنّ اسم «روزا بيلا[1]» و«بوف ستروغانوف[2]» هامّة للغاية كأهميّة الوجبات الأخرى للآخرين مثل «لحمُ البطّ مع البرتقال» (آه لو تعلم كيف تُلفظ حروفُه مكوّرة مصحوبة ببعض الأحرف الصائتة العريضة) أو «السجق على الطريقة النرويجية» أو «الهندباء حسب المطبخ الفنلندي» وربّما أخيرًا «سمك حامض محلّى بحبيبات السكّر البلورية حسب وصفة «تان سو يو» يضاف إليها القليل من الزنجبيل والكثير من صلصلة الصويا.

في تلك الأثناء وقبل سنين كثيرة (خمس أو ستّ سنوات)، بدأتُ العملَ لصالح مجلة «روزا بيلا». نعم كان هناك مجلة تحمل هذا الاسم وطبعنا عددين فاخرين قط. أشرف على إنتاج الصحيفة ونشرها خبير ثقة في مجال صنع الحلويات. انتشر اسم هذا الرجل الماهر بسرعة فائقة وكسب الكثير من المال وبسرعة أكبر غاب عن الأضواء. لم يعد أحد يذكره في يومنا هذا وباتت كعكاته المحلّاة طيّ النسيان. يبدو أنّ جهود صديقي الذي انشغل بتفعيل الدعاية الاستراتيجية المركّزة للمجلة وجهودي بصفتي مساعده الأول أوراق تاهت في مهبّ الريح.

---

(1) كعك شهيّ وكذا اسم وكالة لتنظيم حفلات الزفاف.

(2) وجبة طعام مكونة من الأرز ولحم العجل.

على أيّة حال فإنّ اسم «روزا بيلا» (أتمنّى صادقًا أن يتذكّر أحد هذا الاسم) حمل معه شيئًا ما من القرن الجديد، ذكرى حلوة خفيفة من الفنّ النمساوي الذي عرف في القرن التاسع عشر. تلك كانت طموحاتنا من الدعاية الموجّهة آنذاك، وبناء على ذلك أخرجنا الملصق لدى أحد أمهر المصوّرين الفنّانين، أجره كبير للغاية ولا يحضرني اسمه الآن. إحدى زميلات الجامعة درست الأدب البولندي (وما أدراك ما بولندا، يحبّ أن يردّد صديقي) هي الوجه وبالأحرى الجسد الذي وقع الخيار عليه لطباعته على ملصق الدعاية.

في البداية انطلقت الأمور بصورة جيدة واعدة وبات من الواضح أن الحياة أمامنا حلوة. ناقشنا ضرورة لفظ الاسم «روزا بيلا» بأحرف ممطوطة وبلكنة جنوبية شرقية توحي بالعاطفية الفائضة وبشيء من الحلاوة. حديث كيّس عن شهرزاد جديدة. ستصبح محلات الحلوى نوادٍ للحنين، لا توجد حانات في المشرق، لكن المقاهي ومحلات الحلوى في هذه الأماكن بمنزلة حانات، وهنا تحديدًا ألقى المشرق تيمّنا مشيمته. أضفتُ أنا قائلا.

انهمكتُ بقراءة النثريات المرتبطة بالدعاية بما في ذلك مقال لخبير شؤون الدعاية جاك سيغيل بعنوان (لا تقل لأمّي بأنّي أعمل في مجال الدعاية، فهي تعتقد بأنّي أعمل عازف بيانو في بيت دعارة). كان عليّ أن أقترح عبارة بهدف الدعاية لـ«روزا بيلا». جلسنا في نادي «يالطا» مع صديقي، طلب هو بدوره قطعة حلوى «روزا بيلا» وجهدت أنا بتأليف العبارة المطلوبة من دون حتّى أن أتذوّق قطعة الحلوى أمامي. الأولوية للعمل دومًا وأخيرًا قدّمت له المقترح. قرأه صديقي ببطء، تمهّل قليلا ثمّ أشعل لفافة تبغ وقال بلهجة حاسمة «هذا هو النصّ المطلوب».

العبارة التي كتبتُها «قطعُ حلوانا بمنزلة عواطفكم الجيّاشة». في تلك الأثناء انتشر هذا الشعار كالنار في الهشيم، وأمتلكُ الشجاعةَ للتأكيد على أنّه

ساهم بتلميع كلمة «حلوى» الجميلة ونفض الغبار الذي علق بها قبل الحرب بصفتها بذخ وضرب من الكماليات. في تلك اللحظة بالذات تذوّقت لأوّل مرّة في نادي يالطا حلوى «روزا بيلا».

يا لخيبة الأمل! كنت قد وضعت بالحسبان مسبقًا جمالية كساء السكّر الزكيّ لهذا الكعك قبل أن أتذوّقه، حِكْتُ في مخيّلتي طعم الكريم الكثيف السخيّ والبروتينات المهروسة كالثلج وما إلى غير ذلك. والآن تحضرني هذه الحلوى كئيبة باهتة غير أصيلة، اسمها أعذب وأشهى منها بكثير.

هذا كلّ ما تبقّى من ذكرى تلك الحلوى الشهيرة في تلك الآونة «روزا بيلا». لكن وفي أثناء بحثي عن المجلة ملتهمًا بشراهة كلّ ما تطاله يدي من كتب الطهي عثرت على اسم ساحر «بوف ستروغانوف» (مجلة بعنوان «بوف ستروغانوف» الذي أعجبني كثيرًا). طالعتها ببطء مؤكّدًا على المقاطع الأخيرة. ما الذي تمثّله وتحتويه مجلة تحمل هذا الاسم؟ وكيف استوعبُ المعنى الفرنسيّ من القرن التاسع عشر المماثل للاسم المقدّس في التقاليد الأدبية «سينت بوف» من جهة والمعنى الروسي من القرن ذاته! من هو ستروغانوف هذا...؟

أحببتُ بوف ستروغانوف كحبّي الأثير لجزر الهاواي على الرغم من عدم زيارتي لها، من دون أن أتلمّس وقعها وتأثيرها كما كان جدّي يتمنّى أن يرى البسفور يومًا من دون أن يعرف الدوافع الخفيّة لذلك. ردّدتُ هذا الاسم كما أردّد «الخيل البرزوالسكية» (امتلكُ رسمًا لهذه الخيل على طابع بريد روسي قديم). اختزُل الحصانُ كلّه في هذا المسمّى، نعم هو كلّ الحكاية، الأعصاب والعروق والعضلات والشعر الأملس والمؤخّرة القويّة والخبب وغيره.

أطلقتُ اسم «بوف ستروغانوف» على أحد الرجال الواردة اسمهم في قصيدة وهو متزوّج لكنّه على أيّة حال مجرّد «عبوّة الخلّ في نهاية الطاولة»

أو «المربّع الصغير فوق الملاءة» التي تستخدم في الأعياد فقط وتوضع أمام الضيوف، هذا هو «بوف ستروغانوف»!

هكذا تبدو لفظة «بوف ستروغانوف» حاسمة واحتفالية ومتّقدة ومتألّقة لمغامر محافظ أو لسيّد فرنسيّ أو لروسيّ أنيق جذّاب.

اكتشفت الوصفة مؤخّرًا. وتشمل لحم بقر، زبدة - ليتر، طحين - 80 غرام، صلصلة طماطم، بطاطا، رأس بصل، بهار أسود، بقدونس وشبت. تعلّمتُ أصول فرك ألياف اللحم الرقيقة بالملح والبهار الأسود ثمّ تغطيتها بالكريم المخفوق، يُضاف إليه صلصلة الطماطم وشرائح البصل المقلية بالزبدة... إلخ. الوصفة تلغي بعنفوان واضح العلاقة الفرنسية الروسية وهي أقرب ما تكون إلى وصفة لحم البقر المشرّح إذا تعمّدنا خشونة التبسيط.

ما المغزى من هذه الحكاية؟ إنّ اختلاط المفاهيم في اللغات المختلفة هو المسؤول عن سوء الفهم واللغط. هل قدّر لنا أن نعرف لغة لحم البقر المشرّح والمسمّى الحقيقي للأشياء ومتى نلفظ هذه المسميّات ومتى نلتمسها ونطالب بها؟

عن سرقة الحكايات

سمعتُ صوت كمنجة في القطار المنطلق من مدينة صوفيا إلى برغاس قبل أن يبلغ مدينة تشيربان. (توقّفَ القطارُ هنا في هذا المكان تحديدًا بصورة مفاجئة قبل مدينة تشيربان، وهنا تعرّفتُ قبل عشرة سنوات إلى ميتو المفرّغ للعمل في فرقة الانشاءات العسكرية، الذي أهداني الحوارية التالية، ربّما لم يمنحها لي بل سرقتها منه وها هي تفاصيلها على أيّة حال: ... *صاح الرقيبُ الأول: أنتم حصى الأرض. من أين سيمرّ القطار السريع صوفيا - برغاس إذا ما نفذ مخزون الحصى لدينا؟* دوّى الرجلُ بصوته ثمّ صفع جنديًا وآخر على رقبتيهما وصاح ثانية: *لا تخافوا، لن تنتهي إمدادات الحصى أبدًا. الحقيقة أنّ توقّعاته كانت صحيحة، لم ينفذ الحصى أبدًا.* هكذا انتهت حوارية ميتو بذات الاستغراب الذي سنلاحظه الآن على أوجه المسافرين. انتهت فترة الوقوف).

صوّب كافّة المسافرين في القمرة نظرات ذهول تجاه جهاز الراديو المثبّت في أعلى القمرة والذي لم يشغّله أحد حتى اللحظة. لكنّ اللحنَ لا ينبعث من هناك. بعد قليل انضمّ للكمنجة عزفٌ على الأكورديون ومن نهاية الممرّ سُمع صوت قهقهة غجريَيْن أحدهم يحمل كمنجة وعلى رأسه بُرنيطة. مع مرور السنين تمكّن إدِلْفايس وصاحبُه من عزف أغنية الأديرة البيضاء[1] ومن تغطية قاع البُرنيطة بالقطع النقدية المعدنية وورقتين من المال.

---

(1) أغنية شعبية شهيرة في بلغاريا.

ثمّ قرّر عازفُ الكمنجة أن يغيّر نمط النغمة، أشار على صاحب الأكورديون أن يتوقّف عن مجاراته وفي حمّى العرفان ومن دون سابق إنذار عزف منفردًا مقطوعة فريدة. آه كأنّ هذا الغجريّ الأسمر نايجل كندي[1] يعزف مقطوعة «شتاء» لفيفالدي وبمنتهى الروعة.

من المبالغة طبعًا الاعتقاد بأنّ كافّة المسافرين على القطار الاحتفالي من صوفيا إلى برغاس على معرفة بأعمال فيفالدي. قد يمتلك نايجل كندي حظًا أوفر لأنّه يتواجدُ في الوقت ذاته في بلغاريا. أحدُ المسافرين في القمرة الأولى صاح بأنّه سيطالب باستعادة ثمن التذكرة إذا لم يتوقف الغجري عن عزفه التافه هذا. كأنّ نايجل لم يسمع ما قيل بالقرب منه لكنّ رفيقه نهره على الفور ليبتعدا عن المكان وسرعان ما انهمكا بعرف مقطوعة فيفالدي «العيون السود».

انتقال مثير للاهتمام وتعامل ناجح وعملي في مثل هذه الوضعيات. حقّقتْ لهما هذه الخطوة ثلاثة أوراق نقدية أخرى، انحنيا أمام المسافرين بطريقة فنيّة مدروسة، وصفّق لهما أحد الحضور. الغجري صاحب الكمنجة قال: هل يوجد بينكم مسافر إلى مدينة كارنوبات؟

سُمِعَ صوتُ امرأة من داخل القمرة، دخل الغجري إلى هناك، اعتذر إليها بأدب وقال بأنّ أمّه تعيش في هذه المدينة، في البيت الأول المطلّ من الحيّ على شارع مزفّت، بيت أزرق وفي حديقته شجرة طلح مسنّة «أكاسيا» واسم أمّه تروفكا. لذا رجاها إن مرّت من هناك أن تخبر أمّه بأنّ ابنها بخير ويعزف باحتراف ويحصل على المال وينال الاحترام والتقدير.

في تلك اللحظة بالذات توقّف القطار في محطة مدينة تشيربان وسارع

---

(1) نايجل كندي عازف كمنجة إنجليزي شهير.

الرجل بمغادرة القطار، وعندما شارفنا مدينة ستارا زاغورا تذكّرتِ المرأةُ بأنّها لم تسأل الغجريّ عن اسمه. قلتُ لها أنّ اسمه ميتو. نظرت إليّ مستغربة ثمّ قرّرت بأنّني أمازحها وأجابت بأنّ كلّ رجال الغجر يحملون هذا الاسم.

هذه هي حكاية ميتو الذي يمتلك القدرة على تمرير مقطوعة قصيرة لفيفالدي خلال عزفه لأغنية الأديرة البيضاء والعيون السود، مخاطرًا أن يتلقّى صفعة أو يُحرم من البقشيش أو الإبقاء على قبّعته فارغة.

في اليوم التالي كان من المتوقّع أن تنشر الصحف عناوين تفيد بأنّ نايجل كندي العازف العبقري لمقطوعة «الفصول الأربعة» قد تألّق أمام عازفي الكمنجة في قصر الثقافة الوطني في صوفيا ليلة البارحة.

***

كان غاوستين يجلس على الأريكة في المتنزّه يقرأ صحيفة. اقتربت منه غجرية.

- أراكَ، أراك بأكملك. قالت الغجرية بسرعة، أعطني يدك لأقرأ طالعك.

- لا، شكرًا. أجاب غاوستين بهدوء من دون حتّى أن يرفع رأسه عن الصحيفة.

- أنت تعاني من وطء سحر أسود يا رجل. أنا حتى لا أريد نقودك، سأعطيك عشبة لفكّ السحر المسلّط عليك.

- لو سمحتِ دعيني وشأني! أجاب غاوستين بنبرة حاسمة ثمّ قلب الصفحة.

- أخبرني، ماذا تقول صحيفتك عن أحوال الطقس؟ قالت المرأة مستسلمة للأمر الواقع.

بحث غاوستين عن الزاوية المتواجدة في أسفل يمين الصفحة حيث تنشر عادة أحوال وتقلبات الطقس، لكنّه لم يعثر هذه المرة على الخبر المطلوب. تذكّر بالأمس خبرًا على الصفحة الأولى يفيد بسرقة زاوية أحوال الطقس.

- لا توجد نشرة عن حالة الطقس، لقد سرقوا هذه الزاوية. أجاب غاوستين بكآبة وسوداوية، أراد أن يضيف بأنّ الغجر قد سرقوا الصفحة لكنّه فضّل الصمت.

- أخبرني على الأقل كم الساعة الآن، زوجي سكّير وأولادي عراة...

- الثانية واثنتان وثلاثون دقيقة بعد الظهر.

تفكّرت الغجرية «آه، حصلتُ على نصيبي من هذا البخيل، مع أنّه ضئيل للغاية».

«هؤلاء الغجر ينجحون دومًا بلصق شيء ما بأيديهم، ما بالها وأحوال الطقس!» تفكّر غاوستين ثمّ أخرج من حقيبته دفترًا صغيرًا ودوّن خاطرة.

***

تدخل الغجرية إلى المستشفى، تذهب مباشرة إلى موظفة السجل وتصيح:

- أين طبيب صغار الغجر؟

- لحظة لو سمحت، إذا كان لديك صغير مريض عليك أن تحضريه إلى هنا.

- ليس لديّ مرضى. أريد دكتور لمعاينة صغير غجري.

- تريدين استشارة الطبيب؟

- طبعًا يا بنت. أريد من رجلي أن يسرق دورتي الشهرية ويزرع بدلا منها غجري صغير. تنقطع العادة لشهرين وإذا انقطعت يعني أنّ عندي غجري صغير. رجلي يملك مال كثير، ويمتلك غجريات غيري سرق دوراتهن الشهرية. يملك مال كثير، كثير. سرق مرّة وعاءين كبيرين لحفظ الحليب. أين الدكتور؟ أريده أن يقول لي كيف يأخذ زوجي دورتي الشهرية...

(أهدتني صديقتي ألبينا الحكاية الأخيرة، هي نفسها سرقتها من زميلتها في المدرسة قبل خمس عشرة سنة، لكن الحكاية مرتبطة بالأخت الكبرى لتلك الزميلة التي عملت في قسم السجل في المستشفى المذكور).

الهدية المتأخّرة

وسار، سار في الشوارع المضيئة، توقّف تحت عمود الإنارة يراقب هطول كرات الثلج البلورية الدقيقة، يفتح فمه كما في طفولته ويمدّ لسانه بمواجهة القطرات المتجمّدة اللادغة. لم يتبقّ سوى ساعة واحدة حتى منتصف الليل ولم يعره المارّون على قلّتهم أدنى انتباه وعادة ما تعجّ المدينة في تلك الأوقات بالمتسكّعين وغريبي الأطوار.

يسير تحذوه نشوة غامرة فهو يمتلك الآن المدينة بكلّ شوارعها والطرق الجانبية المفاجئة والممرّات الخفية وبالوعات المياه العادمة الساخنة. كان بإمكانه أن يرسم تضاريس كاملة لحياة وسلوك المتشرّد. بعد سنة أو يزيد ومنذ أن غرق في المدينة الموازية التي يمتلكها عالم المتشرّدين المتسكّعين المتنامي يومًا بعد يوم، أعجبه تنكّر الحياة له والبقاء في الهامش غير معروف الهوية. لم يرتبط بأيّة علاقات، يمرّ بسرعة بمحلات مبيع أجهزة التلفاز، هو الذي لا يحبّ الوقوف أمام واجهات العرض للمحلات التجارية.

كان على وشك الانعطاف والعبور في شارع آخر حين أوقفه خطبٌ ما. المحلّ التجاري مغلق لكنّه مُضاء جيّدًا وأحد أجهزة التلفزة يعمل. ما لفت انتباهه وشدّ طرف عينه لوهله بدا مألوفًا وغريبًا في الوقت نفسه. عاد قليلا إلى الوراء، إنّه التلفاز يبثّ تصويرًا مباشرًا للشارع وفي هذه الليلة تحديدًا وهو أيضًا في عدسة الكاميرا.

سحب الشخص المتواجد هناك في عدسة الكاميرا يده من جيبه مثله

تمامًا. خاف وظنّ أنّه قد أصيب بلوثة. هو لم ينظر لهيئته منذ وقتٍ طويل، معطف بالي، نعم هذا معطفه يظهر على الشاشة ممزّقًا فوق الكوع بقليل. رفع يده نحو ذقنه لم يتوقّع أن تكون قد نمت إلى هذا الحدّ. ذاك في التلفاز يكرّر حركاته ذاتها. تقدّم خطوة واثنتين إلى الخلف، تقلّصت هيئة الرجل أمامه ليستقرّ في مركز الكاميرا. اقترب ثانية حتى كاد أنفه يلامس زجاج واجهة العرض. امتلأت شاشة التلفاز بانعكاس أنفه المحمرّ من شدّة البرد. أنفٌ معقوف قليلا وذقنٌ كثّة غزيرة حتى بانت بلورات الثلج العالقة في شعر الذقن.

تلفّت في الأنحاء، لا بدّ أنّ الوقت يقارب منتصف الليل. رأس السنة هذه ذات خصوصية مائزة ولا أحد في محيط المكان. لا يوجد من يلتقط صور ولا أثر للكاميرا. من المؤكّد أنّها خفية متواجدة في مكانٍ ما. يصوّرونه سرًا من خلف ظهره وفي الأثناء يلهون ويستمتعون بردود فعله. يراقب الناسُ في بيوتهم الآن هذا المشهد المصوّر الذي يلعب هو دور بطولته.

سيطرت هذه الفكرة على وعيه. يصوّرونه وبضعة ملايين من البشر يراقبون كلّ حركة يقوم بها. ينتظرون حركاته وتصرّفاته. هل سيهرب؟ وهل تراقبه هذه الملايين حقًا؟ لم يتمكّن من الابتعاد عن المكان. للأعين التي تراقبه عبر الشاشة لاصق ثبّته أمام العدسة. تملّكه إحساس بأنّه سيذوب كما بلورات الثلج إذا تحرّك قيد أنملة لثانية واحدة خارج نطاق المكان. كما عليه القيام بشيء ما إضافي، تلك الأعين تنتظر. عدّل من ثيابه مستثارًا، حاول أن يُقفلَ الزرّ الوحيد في معطفه مع علمه المسبقّ بعدم قدرته على فعل ذلك، لأنّ العروة كانت قد تبدّدت منذ وقتٍ طويل والزرّ عمليًا يفلت بسهولة من محيطها.

مسح ذقنه لاإراديًا، ثمّ مرّر يده في شعره ومال قليلا إلى اليمين ليغطّي

الجزء الممزّق من سترته هناك فوق الكوع.

حسنننا.. فليكن، ما داموا قد قرّروا الاستمتاع باستعراضي هذا في الليلة الأخيرة من القرن الحالي وطالما لا يجدون وسيلة أخرى. هو المتسكّع ذاته لم يسبق له أبدًا ولا حتى في حياته التي سبقت تسكّعه أن عُرض على شاشة التلفزة. كافّة الذين يظهرون على الشاشة هم من عالم آخر. إيه، «كنت دومًا أشعر بالغيرة تجاههم»، حتى أنّه تفكّر بما سيقوله إذا تصادف وأوقفه آخرون خلال سيره في الشارع فهم يعترضون طريق أيّ شخصٍ موّجهين له أسئلة مألوفة.

على سبيل المثال: هل أنتَ راضٍ عن حياتك اليوم؟ يطرحون هذا النمط من الأسئلة. كان قد جهّز احتمالات مختلفة للإجابة، لكن أحدًا لم يوقفه أبدًا ولم تُوجّه له أيّة أسئلة. والآن في أهمّ ليلة بات هو محور الاهتمام وجوهر برنامج كامل. أخذ بتخيّل هيئاتهم، الكثير من الرجال والنساء، غرف دافئة، أحاديث وأطفال يتقافزون هنا وهناك، مختلف المشروبات، شموع، شجيرات عيد ميلاد بلاستيكية، فشّار محلّى وهو ذو الحضور المضاعف في كلّ منزل. هل يبدأ الحديث؟ فليبدأ على الفور، لعلّه يتفوّق عليهم، لعلّه يشتمهم، ليشتمهم بأقبح الألفاظ كما فعل غيابيًا طوال حياته.

الكلمة الأولى التي تفوّه بها أصابته هو نفسه بالدهشة. *ألو.. هل من أحدٍ هناك؟* تبع ذلك استراحة قصيرة. هراء.. هل ينتظر جوابًا من مشاهد؟ لا، لعله يجرّب مسلكًا آخر. *مساؤكم خير، هذه هي الليلة الأخيرة لـ..* يا حسرة، هل بلغ به الأمر إلى حدّ تقليد أولئك الذين يقرأون الأخبار كلّ مساء! إنّه حقًا ليس بالأمر السهل. تبخّر الغضب الكامن في أعماقه. تلفّت حوله وقد أُسْقِطَ في يده. شارعٌ خاوٍ حدّ الريبة، قد يكون المشهد مجرّد ديكور.

أنظروا، هذا أنا.. أقفُ هنا في الشارع.. لا أعرف من يصوّرني. قد

يكون الأمر مجرّد خطأ. لا أدري كيف يمكنني أن أرفّه عنكم. إذا صادف أنّ زوجتي تشاهدني الآن، أقصد مطلّقتي.. في كلّ الأحوال.. لا بأس.. أنا بخير، والآن سأهدّئ من روعي وسأجتهد لقول شيء مضحك. دقيقة واحدة من فضلكم، فاصل من الدعايات.

يدير ظهره للمشاهدين ويتناول من جيبة زجاجة، يرفعها ويشرب.

«نعم، هذا أفضل، عدا عن ذلك فإنّ كافّة أعياد رأس السنة غالبًا ما تكون بلا معنى. نعم، حمقاء وغبية. انتظرت طويلا لأدخل شاشة التلفاز حين كنت صغيرًا. كنت على وشك أن أفعل ذلك خلال عرض فيلم عن الهنود الحمر لأبقى هناك إلى الأبد في الفيلم الهنديّ الأحمر. والآن أشعر بالرضا لأنّني لم أقدم على تلك الخطوة، فتلك الأفلام ليست أصلية بل مزوّرة وأنتم تذكرونها بلا شك، وستبقى دومًا مزوّرة وزائفة[1]، وسأمضي كلّ حياتي في فيلم مزوّر. يبدو أنّ الوضع بات مثيرًا للحزن في ليلة رأس السنة. والآن سأحاول أن اسرد عليكم تلك النكتة عن الرجل، الطفل.. لا، هذه النكتة قذرة للغاية ولا تصلح للحشود المتواجدة أمام الشاشة.

ما رأيكم بذاك، يسأل أحدُ التوأمين الآخر في بطن أمّه، ماذا يوجد هناك في الخارج، كيف تكون تلك الحياة؟ هو خائف بصورة عامّة والآخر يجيب: اللعنة.. أعذرني.. لا يوجد من يخبرنا بالحقيقة، لم يعدْ من الحياة إلى بطن الأمّ إنسان. إيه، هذا ليس مضحكًا للغاية.

أنا لا أعرف حتى كم الساعة الآن. ربّما تبقّت بضع دقائق ليحلّ منتصف الليل وأنتم الآن تنتظرون الاحتفال برأس السنة الميلادية. لكن لا أحد

---

(1) أنتج هذا النمط من الأفلام آنذاك في ألمانيا الشرقية، في محاولة لتقليد أفلام هوليوود الموجّهة للحروب التي خاضها الأوروبيون الوافدون إلى القارة مع الهنود الحمر.

يأتي ولا أحد يقاطعني. لا أدري.. هل يطلقون العنان لصخب الموسيقى، فليحضر الرئيس كعادته ليلقي كلمة هنا. لكنّي لا أرى كاميرات في الأنحاء! كنت قد قرأت في مكانٍ ما أنّهم قادرون على تصوير كلّ شيء حتى من الفضاء الخارجي. يحلّق قمرٌ اصطناعيّ ما ويصوّرك من دون أن يخطر ذلك ببال. تظنّ أنّك خفي ولا أحد يراك، تسير أو تحاول أن تسرقَ صحيفة من الكشك وهم في الأثناء يتابعون حركاتك ويصوّرونك بل ويفعلون ذلك خلال الليل أيضًا فهم يمتلكون تقنيات متطورة.

أفاد أحد المواطنين بأنّهم يسترقون البصر في دورات المياه مع المعذرة. إذا لم يعجبك حديثي يمكنك وقف البثّ. لا أدري إلى متى يتوجّب عليّ الحديث. هل سيأتي شخصٌ آخر ليحلّ مكاني.. أنا صادق في حديثي ولا علم لي بشيء. أنا مجرّد عابر طريق ولا أدري ما أقول، هل أحيّي شخصًا ما. لديّ عمّة مسنّة أخت والدي رحمه الله وغفر له، لكنّها لا تمتلك جهاز تلفاز. يا إلهههي، كانت أمّي ستفرح كثيرًا لو تمكّنت من مشاهدتي. آه، تذكرت الآن حكاية تليق بمناسبة رأس السنة.

سأجلس قليلا من فضلكم، لأنّ الأجواء هنا باردة للغاية. كنتُ أكتبُ في صغري رسالة لبابا نويل سرًا أرجوه فيها أن يحضر لي كاميرا، لأنّ جارَنا غالبًا ما يتجوّل حاملا كاميرا تصوير مربوطة بحزام جلدي يستخدمها لالتقاط الصور في الأفراح. تملّكتني رغبة عارمة للحصول على جهاز مثله تمامًا، لذا كنتُ أذهب سرًا لأضع الرسائل في صندوق مكتب بريد المدينة من دون طوابع أو عنوان، لكنّي لم أتلقَ أبدًا كاميرا تصوير.

تلقيت كتب، بلايز، كرة وتلقّيت مرة مسدس صوت يلقّم بكبسولات متفرقعة. لكنّي لم أتخل عن حلمي بالحصول على كاميرا تصوير. هذا ما أردته وتقتُ إليه طوال الوقت، لكنّي لم أبحْ لأحد بذلك وبقيت في حالة

انتظار وترقّب. أضع الطوابع الرسمية على الرسائل ولا فائدة. لم يأتِ ذاك الذي رغبت بالحصول عليه حدّ الهوس. الأمر على أيّة حال ليس تمامًا كما ذكرت بل أسوأ من ذلك بكثير. في إحدى الشتاءات كنت عائدًا من الوحدة العسكرية وقد نسيتُ كاميرتي وكلّ ممتلكاتي لأمضي ليلة رأس السنة وحيدًا.

طرق شخصٌ ما الباب مع أنّي لم أدعُ أحدًا لزيارتي. فتحت الباب وإذا به بابا نويل نفسه. ذقنه الطويلة قد انفصلت عن وجهه وأسفل بنطاله ظاهر من تحت ردائه الأحمر. «أهو أنت فلان بن فلان؟ نعم هو أنا»، أجبت. تحسّس هو بيده حقيبته وأخرج منها الكاميرا بحزامها الجلدي وعدسة تكبير. نفس الكاميرا التي تمنّيتها في طفولتي. قدّمها لي ومضى في سبيله. تسمّرت في مكاني مذهولا ثمّ ركضت خلفه لمعرفة هوية المرسل لكنّه كان قد اختفى عن الأنظار.

أليست بمعجزة! إيه، ربّما بحتُ بأمنيتي في مكانٍ ما أو في المعسكر والوحدة العسكرية تشمل ما هبّ ودبّ، يبدو أنّهم قد بعثوا لي بهذه الكاميرا من باب الفكاهة. وصلت الهدية بعد عشرة سنوات، عشرة سنوات.. أمسكتها بيديّ وشعرت بضيق وحرج شديد. جلست وطفقت بالبكاء، بكيت طويلا من دون أن أعرف الدوافع الخفية لبكائي. لماذا لم أحصل على هذه الهدية قبل عشرة سنوات؟ ما فائدتها الآن وما حاجتي إليها في هذا الوقت؟ إذا لم تتحقّق الأمنية في الوقت المناسب فمن الأفضل ألا تتحقّق نهائيًا. والآن تتكرّر المسألة ذاتها. لا أحد يلاحظك مدى الحياة فما بالك أن تخضع للتصوير وفي ليلة رأس السنة..».

انطلقت المتفرقعات والألعاب النارية فجأة من شرفات المنازل وانقطع حديثه المباشر. أدرك بأنّ القرن الجديد قد حلّ ولم يحضر شخصٌ آخرَ ليستبدلَ مكانه. شعر بأنّه مجبر على إكمال البرنامج فلديه مهمّة. اشتدّت

الريح وارتفع تواتر هطول كرات الثلج وتراكمت فوق الرصيف. توقّف عن الكلام وبقي في مكانه ينظر ويراقب الشاشة قبالته تلك التي عكست هيئة الرجل الواقف أمامها، لم يفكّوا قبضتهم عنه تمامًا كما يبقون على النار الآيلة للانطفاء مشتعلة.

عند الصباح استمرّ التلفاز الوحيد المشغّل يعمل بهدف الدعاية للمحلّ ويحتوي على كاميرا مزروعة في داخله، يبثّ على شاشته رجلا منكمشًا ومنطويا على نفسه وعيناه مفتوحتان على مصراعيهما. وعلى الشارع أمام المحل لا أثرَ لإنسان.

لام
من وحي الجريمة

المال والسجائر والولاعة في جيبه. نظر ثانية من حوله، ثمّ وضع الرضيع بعناية، تناول الحقيبة فتحها للمرّة الثالثة هذا الصباح وأيقن للمرّة الثالثة أنّ الرسائل الستّة المطبوعة ما تزال هناك. دار لبضع ثوانٍ أخرى في الممرّ، استرق نظرة إلى المطبخ وقال بعفوية «وداعًا باربي»، على الرغم من يقينه عدم وجود شخص هناك ثمّ فتح الباب وخرج.

هناك احتمالان فقط. الأوّل، لا يوجد ما يدعو للدهشة أن تنشر صحيفة تفاصيل مسابقة للقصة القصيرة، على أن تكون القصة من وحي الجريمة وأن تتضمّن جريمة قتل بدافع الحبّ الجارف. وتضيفُ الصحيفة: ثيمة *القتل بدافع الحبّ* واردة في المسابقة التي تحمل هذا العنوان وقد أُعلن عنها منذ وقت ليس بالطويل في الولايات المتّحدة الأميركية بمبادرة من «أوتو بنتسلِر». من المنطقي أن يشارك هذا الشخص في هذه المسابقة، وغالبًا ما يحمد ويشكر الطاقم الإداري للصحيفة بنتسلِر وإن كان ذلك في نطاق ضيّق محدود، لأنّ الصحيفة ساهمت بإشهار اسمه على نطاق واسع.

يبدو عدم مشاركته مثيرًا للريبة بشكلٍ أو بآخر، وقد شغلته هذه الفكرة لما يزيد على مئة خطوة. يفرضُ عليه المنطق الذهاب إلى الصحيفة وتقديم القصّة القصيرة. هنا توقّف X. X وسحب لفافة تبغ ماركة «جيتان»، عادة ما يدخّن لفائف تبغ رخيصة «ميلنيك» أو «سريديتس» لكن النهار يستحقّ

هذا الاستثناء. جمع كفيه وأشعل اللفافة. أنهى الدخان اللاذع الحادّ المتصاعد الفرضية الوردية الأولى، أبطأ الخطى ربّما بسبب لفافة التبغ وقرّر التمعّن بالفرضية الثانية.

أُعلنت المسابقة قبل 3 أسابيع إثر تلك الحادثة. كانت الصحف قد التهمت بشغف تفاصيل عملية القتل (الأكثر بشاعة خلال السنوات العشرين الماضية)، وملأت حيثيات الجريمة صفحات واسعة عن مختلف دوافع واحتمالات عملية القتل وارتفعت معدّلات المبيعات بصورة ملحوظة على الرغم من مرور قرابة الشهرين على عملية القتل.

لم يتراجع نشر تفاصيل الحادث إلى الصفحات الخلفية وأبدى القرّاء تعطّشًا لمتابعة قصّة الحبّ الثلاثية الأقطاب باعتبارها فريدة. تشهد البلاد عمليتي قتل أسبوعيًا بالطبع، لكنّها تقليدية كالقتل أمام مكتب تصريف عملات، رصاصة في الرأس، القليل من الدماغ، اجتزاز جزء من الوجه والجمجمة، وبهذا تُطوى القضايا المذكورة. لكن عملية القتل هذه مختلفة للغاية. فتىً في الثانية عشرة من العمر «وسيم كلعبة باربي» كما ورد في صحيفة مركزية، غُمّس حيًا في خليط يغلي من الراتنج والشمع وخيوط التنغستن ونشارة الرصاص والفضّة.

(كأنّ العملية تجهيزًا لتصنيع مجسّم في متحف الشمع - مدام توسو)، هذا نصّ عنوان في صحيفة أخرى. قالبٌ فضيّ اللون أعدّ بمهارة فائقة. بالون كبير رُبط إلى يدها اليسرى وما بين اليد اليمنى وجسدها عبوة صغيرة من الفشّار. المؤسف في هذه الحالة أنّ «الدمية» بقيت هناك لستّة أيام متواصلة منذ 29 ديسمبر ولوحظت للمرّة الأولى في الخامس من شهر يناير الموافق أوّل أيام العمل من العام الجديد، بعد عطلة رأس السنة الطويلة، وقد أشرف موظّفو المبنى على إزالتها باعتبارها دعاية على هيئة دمية غير قانونية أو مجرّد

تصرّف أحمق غبيّ. بقيت هناك فوق سطح إحدى مقرّات الشركات الكبيرة لستّة أيام أمام أنظار المدينة كلّها إلى جانب لوحة الدعاية المضيئة «لَكي سترايك».

أبقت على حضورها المثير لامعة بخيوطٍ من الفضّة والرصاص وبيدها بالون كبير ومن تحتها قماش طويل كُتب عليه بخطّ غريب (عيد ميلاد سعيد يا ديدي) وكما كافّة الأشياء الجديدة جذبت الأنظار على الفور والجميع يرفعون رؤوسهم عاليًا منتشين فرحين، مع أنّهم لم يدركوا ولم يحدّدوا الشخص المعنيّ بهذه التهنئة وما هو الإعلان الخفيّ الذي تتضمنه الدمية.

حين أنزلوا الدمية من السطح انكسر القالب وبان في داخله جثة فتاة شابّة آخذة بالتحلّل. بعد بضعة أيام نشرت الأجهزة الأمنية في كافّة الصحف الصورة الافتراضية للقاتل، ويُقال إنّ امرأة مسنّة شاهدته يحمل الدمية صاعدًا إلى سطح المبنى. أفاد X. X إنّ الرسم الافتراضي لا يشبهه أبدًا وهو أقرب لهيئة إنسان الكرومانيون من العصر الحجري القديم، جبهته قصيرة وحواجبه كثيفة وعيناه غائرة مرعبة وفكّه الأسفل قويّ صلب.

يبدو أنّ الرسم مستوحى من كتاب قديم في علم الجريمة. منذ وقتٍ قريب أطلق الرصاصُ على الحارس المناوب أمام السفارة اليابانية وبدا القاتل في عدسات كاميرا الرقابة رجلٌ ذو وجهٍ قاسٍ وعظامٍ طويلة (للتنويه هنا، يشبه القاتل إلى حدّ كبير إنسان الكرومانيون) روّع الحدث إلى وقت معلوم القرّاء حتى تمكّنوا من القبض على فتاتين في السابعة عشرة من عمرهما، شعرهما قصير وينزفان دمًا في قطار ما بالقرب من مدينة ميزدرا. يا لها من ترّهات بوليسية!

أخيرًا أشعل X. X لفافة جيتان. بعد ثلاثة أسابيع من حادثة «الدمية الحيّة» أعلنت الصحيفة التي عمل لصالحها عن إطلاق مسابقة للقصّة

القصيرة في مجال الجريمة. الجوائز سخية بشكلٍ مريب مع أنّ الوضع المالي للصحيفة متواضع للغاية، كما وعدوا بنشر أفضل قصّة في كتاب. الدودة المستخدمة في هذه الصنارة سمينة والمسابقة مموّلة من تجمّع مريدي قصص الجريمة الذي لم يسمع به أحد حتى تلك اللحظة.

تخيّل كيف تشكّل هذا التجمّع المختصّ بصنف جرائم القتل بسرعة، مواطنون مدنيون، رجال شرطة حليقو الرأس يرتدون سترات منتفخة من جهة اليسار. لم يعلنوا عن لجنة تحكيم لكن كثُر الحديث عن معيدين مساعدين في الجامعة. هناك إمكانية كبيرة بأن تكون المسابقة افتراضية وليست حقيقية، بعد أن راود محرّرو الصحيفة ولجنة التحكيم هاجسا مفاده أنّ القاتل هو من فئة الأدباء والكتاب أو أحد المهووسين المغرمين برسم وتدوين جرائمه.

رجلا أمن ملمّان بالأدب والإبداع وربّما يقرآن كلّ ما هو مكتوب ويؤّلانه باعتباره اعترافات ذاتية وتدوين لكافّة الأقوال. هل سمعا من قبل باسم خومبرت خومبرت؟

توقّف X. X أمام مقر الصحيفة، قدّم لنفسه (لفافة الجيتان الثالثة) وتسائل: كيف تمكّن المحقّقان من سحبِ نصّ قصتي بالذات من بين أيدي أعضاء لجنة التحكيم الغافلين؟ وكيف ذاع صيت حادثة القتل في وسائل الإعلام على الرغم من اتّخاذ كافّة التدابير؟ تداول محرّرو الصحيفة ولجنة التحكيم ما بينهم الوضع القانوني للوسائل الملتوية المستخدمة لكشف هوية القاتل، وناقشوا بإسهاب وعمق المشاكل المتعلقة بالرواية المستوحاة من خيال الكاتب باعتبارها دليل في القضية الجنائية. تناقلت الصحف ووسائل الإعلام طوال الوقت اسم X. X وارتفع الإقبال مجدّدًا على شراء الصحف.

جمع ناشرو الصحف المبادرون كافّة ما نشر من القصص الدورية والمثقّفون في الأثناء يتظاهرون أمام المُعْتَقَل. كما نُشرت عناوينٌ مُحْكَمَة

بأحرفٍ كبيرةٍ مُظلّلة. «محكمةُ العدل الدولية في لاهاي..» «سلمان رشدي يرسل..». باتت العناوين المنشورة بالأحرف الكبيرة المظلّلة الدامغة النافذة على الصفحات الأولى الأساس في طريقة تفكير الكاتب X .X. أدرك بأنّ هيئة الآداب الدولية وعالم الروائيين يدافعون عنه ويدعمونه، لذا بدا رجال الأمن والمحققون والمحكمة والدولة بكلّ مؤسّساتها ضئيلة للغاية كقطع الجند الرصاصية الصغيرة. لا، بل يبدون كالخنافس المستثارة المتحفّزة. الفرصة لقلب المعادلة مهيّأة لأن تصبح حقيقة، أخرج من حقيبته الصفحات الستّ وقرأ نهاية القصّة مرّة أخرى.

حسّاسٌ حدّ الألم، حذرٌ بلا حدود، رحيمٌ طيّب القلب. انتقامٌ لكافّة الشغوفين الرحيمين ولمعشر الحسّاسين حدّ الألم، الحذرين بلا حدود، عيد ميلاد سعيد يا ديدي.

ثمّ فتح باب مقرّ الصحيفة.

ثمّ فتح باب مقرّ الصحيفة.

روح عيد الميلاد لخِنّوص[1]

هنا، من الغصن الرفيع لشجرة البرقوق يمكنني بهدوء أن أراقب كيف يقتات الدجاج الشرس بنهم دمائي السوداء الساخنة التي لم تتخثّر بعد، وهاهنّ دجاجات الحديقة المعروفات غالبًا بلطفهنّ واللواتي تقاسمن معي هذا الصباح مكبّ نفايات نسور حقيقية، شياطين متلبّسة ومصّاصات دماء منزلية. كان عليّ أن أتقبّل الأمور على علاتها. اضطجع (ليس أنا بل جسدي عليّ أن أتعوّد ذلك) في كومة ثلج قذرة إلى جانب النفايات ودمائي مختلطة بالبياض.

صحيح، يمكن لميتة ما أن تكون خلابة وما يزال السكّين مزروعًا حتى المقبض في حنجرتي، يخشون سحبه، يخشون أن أنهض ثانية. أحدُ الجزّارين يشرح كيف ألقوا بخِنّوص على الأرض خلال العام الماضي ولم يتمكّن ذاك الجزّار من غرس السكّين في المكان المحدّد لحماقته وعدم درايته. لذا، قفز الخِنّوص وانطلق في محيط المكان وأمعن تخبّطًا في ساحة البيت. انطرح ثلّة الجزّارين المتواجدين هناك أرضًا، ونثر فوق ظهره ومن حوله كومًا من القمامة أينما عبر ومرّ هاربًا من الموت لا يقدر على تثبيته أحد. هذا ما أكّده أحدُ المشاركين في ذبحه. تمكّن المُضيف في نهاية المطاف من تناول شاعوب وغرسه في رقبته. استمرّ الخِنّوص هاربًا من الموت ببشاعة كتنّين والشاعوب مغروزٌ في رقبته.

---

(1) الخِنّوص هو صغير الخنزير

نظر إليّ في تلك اللحظة أو على الأرجح نظر إلى جسدي وبات من الواضح عدم تكرار تجربة العام الماضي. هنا تدخّل الرجل نفسه الذي أطعمني طوال العام، قدّم بداية إناءً من النبيذ الملطّخ بدمائي لكبير الجزّارين ثمّ مرّره للآخرين. جرعة تليها نكات وحكايات. لم يخطر ببالي يومًا ميتة ما قد تكون مصدرًا للممتعة إلى هذا الحدّ.

والآن سيقطعون أذنيّ لشيّهما على الجمر. «هذا أوّل الخير وهو الأطيب». ثمّ تشتعل لمبات البنزين لحرق جلدي حتّى يسودّ كما القدر الكبير الذي كانوا يضعون فيه طعامي طوال السنة الماضية. ثمّ يغسلوني بالثلج ويلفّعوني بالأكياس ويبدؤون بحلاقة شعري الخشن بسكّين ضخم، بعد ذلك يغسلوني بالثلج ويدهنوني بالخلّ والملح (لو لم تكن روحي هنا فوق شجرة البرقوق لشعرت بألم وحرقة) وسيقطّعون جلدي نتفًا ثمّ يمضغونها بصخب. أدرك كلّ هذا كأنّي عايشته آلاف المرّات، أشعر به ولا أدري ما أقول كأنّي أحادث دمائي مع أنّ الروح تفتقد للدماء. ذبحونا طوال تلك الشتاءات، لذا ليس من المتوقّع أن تتبخّر الذكرى القاسية المؤلمة وكلّ هذه الدماء بسهولة. هذا جميعه مدوّنٌ في مكانٍ ما.

أها، كدت أجفل من غرابٍ حطّ على شجرة البرقوق، ربّما شمّ رائحة دمائي التي بردت وامتزجت في الأسفل بعد أن تخثّرت في الثلج. ظننت بأنّه قد ينقرني أنا أيضًا - روح الخِنّوص الصغيرة. في الواقع أشعر بالسرور لمنحي هذه الساعات القليلة للبقاء في هذه الدنيا. يمكنني بكلّ هدوء أن أراقب ما يفعلونه بي على بعد بضعة أذناب خنزيرية، كيف يقطّع جزّاري جسدي ببطء. يا إلهي، أمتلك حقًا أعضاءً داخلية فريدة، يا لها من أثداء وهذا الطحال، فما بالك بأمعائي الدقيقة الملتفّة!

لم أشكّ يومًا بأنّي جميلة من الداخل إلى هذا الحدّ. أنا متأكّدة من أنّ الشخص

الذي يشقّني ويقطّعني في هذه اللحظة يشعر بنشوة عارمة وسرور. هل من المقبول أن تبدي الروح افتتانا بهذه الأشلاء. إيه، أنا بالكاد أصبحتُ روحًا منذ بضع ساعات فقط. وبالنسبة لروحٍ شابّة صغيرة مثلي فإنّ الأمور تبدو غير واضحة بتاتًا ومجرّد فضولية. أستغرب كيف لا أشعر بأيّ حنق وغضب تجاه أولئك المجتمعين في الأسفل، الذين يتصرّفون كما يحلو لهم بأعضائي الداخلية؟ هم حرّروا روحي فقط عبر الشقّ الذي أحدثوه في حلقي.

لا أدري إذا ما كان هذا الذي يقومون به خير أو شرّ. لا بدّ أنّ الروح خاصّة إذا كانت خنزيرية قد تجاوزت هذه الاعتبارات بكلّ تأكيد. حتّى أنّي أشعر بالأسى لأجلهم. أدرك بأنّ لهم جهنّمهم، أعتقد أنّهم يطلقون عليها هذا المسمّى وسيعبرها كلّ من ارتكب خطيئة على وجه الأرض وذبح خِنّوص هو خطيئة كذلك.

مع هذا فإنّ هذه المصائر يقرّرها آخر، أعتقد أنّ المكوثَ في جهنّم إجراء مؤقّت، مجرّد عملية تطهير وتنقية لخطاياهم البشرية ليتمكّنوا من الخروج منها أبرياء، كخنانيص ولدت للتوّ. قد يتعرّضون في جهنّم لنفس الأفعال التي قاموا بها في الحياة الدنيا. على الأرجح سيُذبحُ جزّاري وسيقطعون أذنيه، ثمّ تُشوى على الجمر، سيغمّسونه ويقطّعونه وكفى.

لا أدري إذا ما كانت أعضاؤه الداخلية جميلة هكذا. ليس الأمر بهذه القسوة، الألم يزول بعد حزّ العنق بالسكّين، ومع هذا أشعر بالحزن والأسى، أظنّهم سيشعرون بمزيدٍ من الألم. سمعتهم يتداولون حكاية في أنحاء القمامة هناك (لماذا يظنّون أنّ الخنانيص لا تسمع شيئًا، مع أنّ أذاننا أكبر من أذانهم ببضعة أضعاف؟)، هذه الحكاية تشير إلى أنّ البكر من سلالتهم قد أكل تفاحة بالخطأ وهي محظورة عليهم بصورة قاطعة وقد توفّر هناك كلّ ما يشتهون من الطعام، تلك كانت جنّة حقيقية، لكن الإنسان البكر التهم الفاكهة الممنوعة

من دون غيرها. ربّما بمحض الغباء، وهذا أمرٌ لا يمكن لِخنّوص أبدًا أن يجرؤ على فعله. عندها بدأت مأساة سلالتهم. تفّاحة واحدة فقط يا لها من حكاية! ويهيّأ لي في الواقع بأنّها غير حقيقية، أخذًا بالحسبان امتلاكهم لأكوام من التفاح.

هي بالمناسبة فاسدة، هذا ما قدّموه لي خلال فترة حياتي المطيعة من دون شكوى كخِنّوص.

لا بدّ أنّ النعيم منذ ذلك الوقت حكرٌ للحيوانات فقط، وإلا فإنّ عمليات الذبح الدموية ستستمرّ بلا نهاية. أشعر باسترخاء وأنّي خفيفة. إذا هبطت عن شجرة البرقوق فإنّي على الأرجح سأطير.

كابوس امرأة

تضحّي كلّ يوم وإذا ما اشتملت مائدة الغداء على دجاجة، تكتفي بتناول قدمها...

فرجينيا وولف «مهنٌ نسائية»

مرتدية ثوب النوم المزيّن بزهور آيلة للذبول. ثوب النوم (بالفرنسية (Peignoir) فضفاض طويل للاستخدام المنزلي) قديم لكنّه نظيف وبانت عليه بقع كأداة من مختلف الصلصات والثوب على أيّة حال قد نسي الفرنسية منذ وقتٍ طويل. الزهور على فستانها مستمرّة بالذبول وتسقط ورقة بين الحين والآخر من زهور ثوبها على أرض المطبخ (المطبخ باللغة اللاتينية: coquina) وهو غرفة صغيرة مكتظة بالأدوات يشمل حوض حنفية من المينا المقوّى، طبّاخ يعمل بموقد واحد صالح للاستخدام وتلفاز صغير ماركة «يونوست» يتواجد فوق الثلاجة. التلفاز غير ملوّن (قد لا تراودُها أحلامٌ ملوّنة) يبثّ برنامجًا وثائقيًا عن تكاثر الرخويات في بلغاريا، ومنه عَرَفتْ أنّ حلزون الحدائق أخنث ويمتلك غدد ذكورية وأنثوية في الوقت نفسه. تستمرّ عملية الجماع لفترة زمنية طويلة تمتدّ لساعات وتتمّ غالبًا خلال فصل الربيع، تتبادل خلالها الغدد الحيوانات المنوية ثمّ تنقلها للبويضات وتعتني بعد ذلك بالبيض حتى تفقس صغار الحلزونات.

كان هناك إمكانية في السابق تدوين هذه الحقيقة المثيرة للفضول على الفور (لاستخدامها حجّة قوية في أحد مواضع أطروحتها)، لكن لديها الآن اهتمامات ممتعة أخرى كتحضير يخنة الضأن (اليخنة باللغة التركية yiahni)

الشهية، تُحضّر من اللحم والخضار والدهن والتوابل. تقوم بحُكم العادة بمراجعة قاموس رثّ للمفردات الأجنبية كأنّ الوجبة بهذا تصبح عذبة وشهية أكثر. لاحظت كذلك أنّ لفظتي «شهية وتركية» متماثلتان وأدركت أنّ هذه الوقائع ليست مصادفة بأيّ حالٍ من الأحوال.

في الأثناء تتساقط الزهور من ثوبها المنزلي وقد غطّت معظم مساحة بساط المطبخ المفروش ببقعٍ معقّمة لخنافس سوداء بدت باهتة من فصيلة خنافس الأيل «لوكانديا» (Lucanus cervus). والآن ستقطع جزءًا كبيرًا نسبيًا من فخذ الضأن لتقليه حتى الاحمرار ثمّ تضيف إليه الزيت بقدر نصف كوب شاي. تردّد ثانية زيت بقدر كوب شاي. ثمّ تقلي في الزيت نفسه شرائح بصلتين صغيرة. تقطعها برتابة «شات - بلات» كما في قصيدة لسيلفيا بلاث التي ورد فيها انقطاع الإصبع مع شريحة البصل (هل السبب لحمق ورعونة؟). هكذا إذن. نحن الآن نلوّن كلّ شيء بملعقة من التوابل الحمراء، نقلّب قطعة اللحم ونضيف إليها شرائح الفليفلة وأقراص البطاطا والباميا كاملة. (باللغة التركية bamya)، كما يجب استخدام أحد أنواع الخضار القرنية التي تثمر مرّة واحدة في السنة في كافّة وجبات الحساء والخضار «غولياش».

والآن جاء دور الكابوس الحقيقي. كلّ ما ذُكر أعلاه مجرّد تجهيز، وفي أثناء سَلقِ اللحم على السخّان حدث ما لا يمكن تفاديه وإصلاحه. لا، ليس ثعبانًا انسلّ من صنبور الماء، وليست قرون خنافس الأيل على البساط التي تنخز بقرونها الضخمة رحمها. ربّما اقتحمت المطبخ في الوقت نفسه الفيلسوفة التركية سيلا بن حبيب والفيلسوفة الفرنسية هيلين سيكسوس لقلب الطنجرة باليخنة المبقبقة على النار الهادئة، ثمّ تراهنّ يمسكن بقطعة لحم الضأن ليحطمن بها كلّ محتويات المطبخ. بل ربّما ظهرت على شاشة

التلفاز غير الملوّن «يونوست» سيلفيا بلاث بنفسها. إصبعها ما يزال ينزف لينقلب التلفاز إلى تقنية البثّ الملوّن.

لا، لم يحدث أمرٌ من هذا القبيل. الحلم يزداد قسوة وعنفًا. الحساء يغلي وعليها أن تبعد الطنجرة عن النار وتقطّع البقدونس، الحنفية مستمرة تنزف قطرات الماء كالعادة، التلفاز يبثّ عرض أسماء المشاركين في إنتاج فيلم من سلسلة علمية وثائقية. وفي هذه اللحظة تجلس هي على أريكة المطبخ، تمسك ورقة زهرية قبل سقوطها عن ثوبها المنزلي ثمّ تدرك لهولها أنّ الوضعية الفوضوية واكتظاظ المطبخ وبخنة الضأن تروق لها وتعجبها، لتستيقظ على الفور.

الثالث

يراودها إحساس منذ قرابة الشهر أنّ شخصًا أو شيئًا ما يراقبها طوال الوقت.

في البداية لم تخبر P بشيء، فهي تعرف جيدًا كيف ينظر إليها مشعلا لفافة تبغه، وكيف يلسع رذاذُ النار أصابعه (يستخدم الكبريت ليشعل لفائف تبغه ودومًا يحرق أصابعه) سيقول لها «كلام فارغ!» يتبع ذلك بثّ الدخان من فمه بما يعادل ثلاثة علامات استفهام تؤكّد قطعيًا رأيه وموقفه.

لكن الإحساس يشتدّ، تظنّ بأنّها مرتبكة وقد أصابها هوس. لوحظت وهي تقوم بأشياء غريبة. تجلس في الزاوية، تتكّئ على الجدران، تحدّق ناظريها في نقطة واحدة، تبقى على حالها هذه بضع دقائق، ثمّ تدير رأسها بحدّة إلى الجانب آملة في سرّها والخوف يمتلكها أن تضبط ذاك الذي يرقبها. توحي لنفسها «إذا تمكّنت من رؤيته، إذا تمكّنت من القبض عليه بنظرة، عندها ستقضي عليه وتختفي هيئته الماديّة المحسوسة».

تذكّرتْ في صغرها خوفها مما قد يتواجد تحت السرير وكانت تبوح لوالدها عن مخاوفها تلك، وهو ينحني ويبحث تحته ليؤكّد لها عدم وجود أيّ شيء باستثناء بعض الغبار وأنسجة العناكب، لكنّها دومًا تتجنّب الجلوس على طرف السرير لتلوّح بقدميها من فوقه كما الآخرين.

يعد بضعة أيام تغيّب P عن المنزل عندها شعرت بقلق كبير. تركت كلّ مصابيح الشقّة مضيئة، وعند عودتها مساءً إلى المنزل تتفقّد الغرف بحرص

شديد الواحدة تلو الأخرى. كانت تخشى إذا ما فتحت أحد الأبواب بغتة وبحدّة ألا يتمكّن ذاك الشيء من الاختباء، ليرتطم باب الغرفة بجسده الدميم البشع.

لم تعد لديها رغبة أن تلتقي أعينهما وأن تجرّده من هيئته المادية بعد أن طغا عليها الخوف والشعور بالاشمئزاز. كانت متيقّنة من أنّ ذاك الشيء يمتلك جسدًا لزجًا مبيضًّا مليء بمادّة قاتمة سائلة كزلال عين ضريرة. عين ضريرة واحدة بقامة بشرية. أخذت تحلم به وعندما تستيقظ لا تجرؤ على فتح عينيها لقناعتها من أنّه منحنٍ فوقها. عدا عن كلّ هذا فقد أثار استغرابها في بادئ الأمر تحوّل العين لتأخذ هيئة جنس ذكري، ليست عين رجل بل عينًا ذكرية بحدّ ذاتها، عين - رجل.

لم تتمكّن أن تختفي بعيدًا عنه في أيّ مكان. تغلق الباب خلفها في المرحاض، وللمرّة الأولى لفت انتباهها أنّ فتحة قفل الباب ليست مسدودة، تهيّأ لها لجزء من الثانية أنّ حدقة عين قد تنحّت من هناك. التقطت الحدقة نظرتها. حشت على الفور تلك الفتحة بالقطن. حدقة العين كانت في الداخل. عاد P من غيابه وكانت قد انقضت أربعة أسابيع بالكامل منذ أن بدأ ذلك الشيء بمراقبتها وقرّرت أن تخبره. قالت له في حديثٍ عابرٍ أثناء تناولهما لطعام العشاء.

- أشعر منذ فترة أنّ شيئًا ما يراقبنا بصورة مستمرة. قالت وشدّدت على ضمير الجمع في تلك العبارة. لم يفته تلميحها الماكر وإن بدا سطحيًا.

- لم أشعر أنّ أحدًا يراقبني. أعقبها بلسعات نار عود الكبريت، نفخة دخان طويلة. - أنتِ بلا شكّ تعرفين بأنّنا نسكن في الطابق الرابع عشر بالقرب من المطار، ومن حولنا لا يوجد مبنى يزيد ارتفاعه على خمس طبقات على مدى ثلاثة كيلومترات لأسباب أمنية بالطبع. أضاف زوجها.

- لذا لا يوجد جار يقدر على مراقبتنا باستخدام المنظار وتدقيق النظر من أسفل غرفة نومك، هذا يتنافى تمامًا مع قوانين البصريات. استمرّ P حديثه بحزم.
- أعتقد أنّ هذا ممكن باستخدام المزيد من المرايا المركّزة في زاوية مستقيمة. هذا هو مبدأ عمل البيرسكوب. هل شاهدت بعض أفلام الغواصات؟ لا يجوز بالطبع الاستهانة بمهارة بعض الطيّارين الذين يُقلعون بطائراتهم من حولنا. إذا تمكّن أحدهم من تثبيت طائرته في الأجواء في أثناء التحليق حول نوافذنا، يمكنه في هذه الحالة اختلاس نظرة..

- لديّ إحساس بوجود شخص ثالث في.. الشقة. تردّدت قبل أن تعلن عن وجود رجل وعين.

هذا يضع الأمور في سياق مختلف. كان P قد استهلك كلّ طاقته الفكرية لتحطيم نظرية وجود أعداء خارجيين، لكن فرضية وجود فضولي يرغب بالمراقبة من داخل الشقّة فاجأه كليًا.

- هل حاول التحرّش بكِ؟ قال ذلك ليخفي قلقه من إمكانية تعرّضها للوثة عقلية.

- لا، بل يراقبني طوال الوقت. أعتقد بأنّه يراقبك أنتَ أيضًا أحيانًا.

- هذا كلام غير منطقي. احتراق آخر بشرار الكبريت وإطلاق نفثة قصيرة من الدخان ليضيف. - أهو الآن هنا؟

- نعم.

تلا ذلك فترة صمت طويلة. سُمع في الطوابق السفلى صوتُ نباح كلب. خطر ببالها أنّ بالإمكان طرد هذا الشيء لو امتلكا كلبًا أو قطة. خاصّة القطّط فهنّ قادرات على استشعار هذه الأمور.

- لعلّنا نقتني قطّة؟ قالت لمجرّد قطع حبل الصمت. لكن لدى P رأي

آخر عن القطط، فقد أوحى له أحدهم بأنّ تواجدها حول النساء يتسبّب بصعوبة الحمل. وحتى أذكى الرجل يصدّق هذه الأمور خاصّة إذا مرّ عام ونصف العام من دون أن تحمل الزوجة. وقد تحدثا بهذا الموضوع لأكثر من مرّة.

- أعتقد بأنّنا قد تحدثنا بهذا الشأن.

في المساء وفي سرير الزوجية كان الموقف كارثيًا. لم يكن ذلك الشيء قريبًا منهما كما في تلك الليلة فقد شعرت به في داخل الفراش. يراقبهما.

- لا أقدر، إنّه يراقبنا.

وقف P ثمّ تناول لفافة تبغ وجلس قبالتها.

- أترينه؟

- لا.

- أتظنين بأنّه رجل؟

- لا.. نعم، على الأرجح رجل. لكن ليس بهذه البساطة التي تتصورّها. هو عين، جنينٌ مخاطيّ، لا أدري كيف أصفه!

- أما يزال في الغرفة؟

- هو لا يبتغي أذيتنا، يكتفي بمراقبتنا. يكتفي بالحضور. لكنّه يخيفني. لا أدري، لديّ إحساس بأنّ.. مرّت عشرون دقيقة طويلة وفي الأثناء غفا P على الكنبة.

- P..

صمت.

- P انهض يا P.

- ماذا هناك؟

- P .. أعتقد بأنّه أصبح في داخلي، تمكّن من النفاذ إلى داخلي.

- من؟

- العين، ذلك الشيء المخاطي. هو ما يزال صغيرًا بحجم الإبهام، بحجم عين صغيرة عادية، عزيزة على القلب.

نهاية سعيدة لقرائنا غير الفطنين

هل أدركتم الآن؟ هي عرفت ما حدث ونامت سعيدة.

كتب P طوال الليل ولم يفهم ماحدث. بشرة الإبهام، والسبابة والإصبع الأوسط تعاني جميعها من الفقاعات المؤلمة بفعل شرار أعواد الكبريت.

إنّه ولد يا P ولد. لقد انقضى الشهر الأول من الحمل.

فاوانيا وأذن الفأر

تعارفا بالكاد قبل ساعاتٍ معدودة، هو بلغ الثلاثين ونيّف وهي تصغره بقليل. كان عليه أن يسلّمها ظرفًا لترسله لأحد معارفه خلف المحيط وهي بدورها تلعب دور الوسيط. العملية برمّتها لا تستغرق ما يزيد على خمس دقائق، لكنّهما أمضيا معًا ساعتان من الساعات الخمس التي تفصلها عن موعد إقلاع الطائرة، ولم يجدا أيّ مصوّغ للافتراق.

والآن يقفان في ركن المقهى في صالة المغادرين قبل الإقلاع بستين دقيقة، يرتشفان فنجان القهوة الثالث بصمت بعد أن تناولا كلّ المواضيع التي يمكن مناقشتها ما بين اثنين تقابلا للمرّة الأولى. بات الصمتُ ثقيلا للغاية. الطاولة أمامهما تكظّ بالكؤوس البلاستيكية الفارغة التي أخذت فجأة شكل أيديهما من كثرة الضغط عليها وتدويرها. وحطما منذ وقت بعيد عيدان خلط السكر في القهوة لقطعٍ صغيرة، وصنعا من أكياس السكّر الصغيرة أقماعًا مخروطية وقوارب دقيقة بمهارة.

خطر له أنّ هذه الطاولة تصلح لأن تكون موقعًا للأعمال الجاهزة أو لنقل شبكة يمكن أن يطلق عليها مسمّى (فنّ الدفاع عن القلق «أبولوجيا») تشمل للحدّ من التوتّر (كؤوس قهوة بلاستيكية، خلاطات سكّر صغيرة، عبوّات سكر فارغة وطاولة بيضاء). ثمّ تهيّأ له أنّ الفكرة غبيّة وفضّل الصمت. قالت فجأة: ما نصمت عنه يتحوّل لكِسَرِ عيدان تذويب السكر والكؤوس المسحوقة. ظنّ بأنّه لن يلتقي أبدًا بامرأة أخرى مثلها، قادرة على

قراءة أفكاره، وأبدى رغبة بالبقاء برفقتها في هذا المقهى مدى الحياة.

ذهل حين أدرك بأنّ عبارة «مدى الحياة» قد خطرت بباله.

- هيّا، دعنا نتحدّث. قالت على الرغم من أنّها لم يصمتا طوال ساعتين. الساعة المتبقية قصيرة للغاية ولا تستحقّ هدرها بتصنيع قوارب صغيرة لكنّها تداركت صمته المتواصل وقالت ببساطة:

- علينا الاعتراف بأنّ الطرق أحيانًا تنقطع بين الكثير من الناس بكلّ ما يحمل ذلك من معنى.

- ما يدعو للسخرية أنّنا ندرك هذه الحقيقة في لحظة اللقاء. أجاب هو بدوره.

- ربّما كانت الفرصة متاحة لنلتقي قبل ذلك. نحن نعيش في مدينة واحدة منذ وقتٍ طويل، لا بدّ أنّنا قد تصادفنا عند إحدى الإشارات الضوئية.

- كنت سألحظ تواجدكِ على الفور.

- أتحبّها؟ سألته بدورها.

- أتحبينه؟ أجاب.

توصل الاثنان بسرعة إلى قناعة إلى أنّ الأمر سيان ولا يمكن تحميل أي شخص مسؤولية التفاوت. لم يتذكّر هو فيما بعد من خطرت له أولا فكرة الإنقاذ هذه (كما كان يظنّها آنذاك)، فكرة اختلاق ذكريات مشتركة، أن يقوما بنسجها من وحي الخيال طوال حياتهما الماضية قبل أن يتعارفا وفيما بعد أيضًا. هي محاولة هزيلة للانتقام من المناسبة العدمية التي جمعتهما لوقتٍ قصير ليفترقا ثانية. بقي لديهما 50 دقيقة.

- أتذكرين عندما كنّا تلميذان نسكن في بيوت تقع على الشارع نفسه.

كنت أضعُ لكِ خاتمًا سرًا كلّ أسبوع في صندوق البريد، أصنعه من أغلفة الألمنيوم الرقيقة لحلوى «لاكتا».

- أها، هو أنتَ إذًا. كان والدي يعثر عليها دائمًا قبلي ويرتاب بشخص مهووس مغرم بأمّي يرسل لها خواتم لخطبتها. لكن توضّح الآن بأنّك أنت من كان يرسلها لي.

- نعم، الخواتم لكِ. أجاب ثمّ قالت بدورها.

- أتذكر حين كنّا في السنة الجامعية الأخيرة سافرنا أنا وأنتَ فقط إلى ذلك الدير. انطلقنا للمرّة الأولى بعيدًا لوحدنا والفندق مليء بأكمله لذا اضطرنا أن نمضي ليلتنا في إحدى زنزانات الرهبان. كان الجوّ باردًا والفراش صلبًا قاسيًا وكنتُ أستشعر الخوف بعد كلّ وصال وأتعمّد بالصليب سرًا عنك. تعمّدت خمس مرّات في تلك الليلة.

- بل ستّ مرّات، وأنا كذلك شعرت بالخوف. ثمّ أردف. - أتذكرين فيما بعد حين حضرت لتشاركيني الحياة في بيتي. صرّحت أمّكِ بأنّها ستتبرّأ منك رسميًا على صفحات «الجريدة الحكومية»، لأنّها ترفض أن تكون جدّة لأولاد حرام غير شرعيين.

- نعم أذكر، أنا على أيّة غير قادرة على إنجاب الأطفال. آثرت الصمت في هذه اللحظة. أمسك بيدها بعطف فائض وحنان للمرّة الأولى منذ تعارفا.

- لا بأس، أتذكرين كذلك عندما كسرت قدمي. كنت عندها في الثامنة والأربعين من العمر. أعمل بجدّ وبدا لي الشهر الذي أمضيته في البيت جنّة حقيقية. أنتِ أيضًا حصلت على إجازة حتى أنّك هددت بكسرِ يدك عمدًا إذا لم يسمحوا لكِ بنيل الإجازة وأمضينا الشهر كلّه في المنزل ولم نغادره أبدًا.

- وفي السنة التالية اكتشفوا لديّ ورمًا سرطانيًا، وكنت أنتَ قد قرأت في

موضعٍ ما بأنّ العلاج بالضحك يشفي من داء السرطان، وأمضينا أسبوعين نتبادل النكات. أتعرف أنّي حتى الآن أجهل كيف تمكّنا من سرد كلّ تلك النكات! وكنت أنتَ مرعوبًا عطوف. عندها حسب ما أذكر شاب شعر رأسك، وبقيت تحضر لي زهور الفاوانيا وأذن الفأر كلّ يوم.

- أحمد لله أنّكِ تماثلتِ للشفاء، لا أدري كيف كنت سأعيش من دونك؟

في تلك اللحظة دعوا بمكبّر الصوت كافّة المسافرين إلى نيويورك للتوجّه إلى المخرج تمهيدًا للإقلاع. صمتا دقيقة من الوقت ثمّ وقفت هي وقالت بأنّ عليها أن تغادر. حمل حقيبتها وتوجّه الاثنان إلى المخرج. وقبل أن تعبر نقطة تفتيش البطاقات الشخصية استدارت نحوه وقبّلته طويلا. «كأنّها لن يلتقيان أبدًا»، هذا ما خطر له مع أنّ لقاءهما هو الأول.

بعد نصف ساعة استدار هو وغادر. شعر بالوحشة وأنّه قد شاخ وقدماه تخطو بصعوبة وألم. تعمّد إغلاق عينيه حين عبر البوابة، المرآة ذاتها هناك في مخرج الصالة ولا رغبة لديه برؤية انعكاس هيئة كتفيه العجوزين المترهّلين وشعره الذي شاب على حين غفلة. كان على قناعة مع كلّ خطوة من عدم قدرته على العودة إلى المنزل عند زوجته الشابة عصية المنال. ولن يتمكّن أبدًا أن يخبرها بما فعل في أثناء غيابه الذي امتدّ طوال الثلاثين سنة الماضية.

فايشا العمياء

(حكاية بلا نهاية)

تنظر بعينها اليسرى إلى الخلف حصريًا إلى الماضي. وبعينها اليمنى ترى ما سيحدث في المستقبل وحسب. مع أنّ عينيها الاثنتين منفتحتان تمامًا كما كافّة المبصرين، لكنّها بمنزلة العمياء. جميعهم يعتبرونها كذلك وينادونها بفايشا العمياء. نادرًا ما كانت تغادر المنزل وحين تذهب إلى الحديقة ممدودة اليدين، ترتطم بشجرة الكرز، وتمزّقُ أشواكُ شجيرات التوت البرّي بشرتها وتركُلُ بقدمها الأواني الفخّارية المتواجدة تحت مظلة المنزل. هي لا تدرك وجود شجرة الكرز والتوت البرّي والأواني الفخّارية، كما لا تعرف معنى اليوم الحالي. عينُها اليسرى على قناعة من أنّ تلك الأشياء لم تنبت بعد من التربة، أمّا اليمنى فتراها قد ذبلت أو تحلّلت وأصبحت جزءًا من التربة. أمّها هي أوّل من لاحظ إصابتها بحالة الضرارة الغريبة، لكن كيف لها أن تعلم أنّ عين فايشا اليسرى ترى المرأة المنحنية فوقها طفلة تحبو وتراها بالعين اليمنى عجوزًا بشعة محنيّة الظهر؟

حين امتلكت فايشا القدرة على الحديث وأخذت تصف بكلمات غامضة ما تراه، أقرّوا بأنّ عينيها ضحيتان لسحر أسود. تجمّع حشدٌ من العجائز من حولها وأخذن يبصقن فوق الأكتف ويشدنّ الآذان ويطقطقن بألسنتهنّ.

فلتشربْ نقيع بذور الفاوانيا قبل شروق الشمس لأربعين يوم متتالية..

فلتُحرقْ مرارةُ صقر، ضعوها بعد ذلك فوق عينيها قبل أن تبرد..

لعلّكم تقشّرون كبد دجاجة سوداء، ضعوا الجلد والقشور لا غير فوق عينيها..

جدّة واحدة فقط جلست بعيدًا عنهنّ تهزّ رأسها السلحفائي الهيئة ولم تتفوّه بكلمة. أخيرًا وعندما تهيّأت لمغادرة المكان همهمت قائلة: لا فائدة من كلّ هذا، عليكِ أن تعثري على ضالتك، وحدها ستجمع عينيك لتعيدك إلى عالمنا هذا.

كبرت فايشا وترعرعت وأصبحت امرأة جميلة جذّابة، على الرغم من أنّ عينها اليسرى بنيّة اللون واليمنى خضراء، لكن هذا التباين زادها جمالا وبهاء. حضر يومًا شابٌ يطلب يدها. وقف أمامها وهي تنظره وتراه بطريقتها العجيبة:

اليُسرى	اليُمنى
إلهي، أهذا الولد الذي يسيلُ مخاطه على وجهه يريد خطبتي؟ يا له من مسكين، طرف قميصه خارج بنطاله وركبتاه منكشتطان، أنا بمنزلة أمّه ويرسلونه لخطبتي، يا لها من مزحة، إلهي!	يداه ترتجفان، شعره أبيض، يا إلهي كم أشفق عليه، ورائحة الفتى تُراب، لقد حان الوقت لرحيله، وهو يريدني زوجة! كيف أنام بجواره يا تُرى؟ وبأيّ عين أنظر إليه، إلهي!

تكرّرت الحكاية مع كلّ رجل يطلبها زوجة، لكنّها لم تجد من يجمع عينيها. هكذا مرّت السنوات والحسناء فايشا تعيش الماضي بإحدى عينيها ومستقبل الأيام البعيد بالعين الأخرى.

تقتربُ أحيانًا حدودُ الرؤية، تتجمّع، آها، توشك أن تندمج في الحاضر،

لكن في الوقت الذي تتهيّأ الشمسُ فيه على البزوغ في عينها اليمنى ترى القمر قد ظهر وتألّق باليسرى. وأحيانًا تبتعد المسافة ما بين الماضي والمستقبل إلى حدّ لا يُطاق وتهمس فايشا: كيف لعيني اليُسرى أن ترى الأرض يبابًا بائدة والعتمة تغطّي الهاوية وشيئًا ما (لا تعرف ماهيته) يطفو على سطح الماء. في ناظري الأيمن تبانُ المدينة مربّعة يتساوى طولها مع عرضها، وجدران الحاضرة مزيّنة بحجارة ثمينة. الحجر الأول من اليشب والثاني من الياقوت الأزرق والثالث من العقيق الأبيض والرابع من الزمرد والخامس من الجزع (العقيق اليماني) وهكذا دواليك.

مساءً حين تخلُدُ فايشا للنوم لا تجد عيناها الراحة. تتشتّتُ أحلامُها كلسانِ أفعى وطالما تلاحق بإحدى عينيها الفراشات ترتفع سيقان الفاوانيا لتبزّها طولا، وعينها الأخرى ترى الفاوانيا قد ذبلت وتقصّفت، وسيقانُها تغطّي جسدَها المتحجّر وفوق وجهها تتلاحقُ الفراشات فيما بينها.

سئمت فايشا نمط حياتها هذا. تملّكتها رغبة مرّة فقأ إحدى عينيها، أن تنتزعها بإصبعها. نعم، ولكن أيّ عين تختار؟ إذا انتزعت اليُسرى فإنّها تحكمُ على نفسِها بأن تعيش مع الحدث البعيد في مستقبل الأيام وهو ليس ممتعًا وغير سار. وبرفقة من ستعيش في ذاك المستقبل؟ من ذا الذي ستتعرّف إليه؟ إذا، فلتفقأ العين اليمنى. الماضي أكثر أمانًا ومريحًا ودافئ. لكن كيف لها أن تنظر لوالدتها وأبيها اللذان سيبدوان طفلين يسيل اللعاب من فميهما؟ كيف ستتعامل معهما وكيف تناديهما؟ فايشا محكومة ولا نجاة لها في الماضي أو المستقبل.

هذه الحكاية بلا نهاية، لأنّ فايشا لم تجد في هذه الدنيا ما يجمع عينيها، لتتساوى الرؤية في العين اليسرى واليمنى. وأنت يا من تقرأ هذه الحكاية، إذا أغمضت عينك اليمنى وقرأت القصة بالعين اليسرى فقط ولم تعثر على أيّة

حروف أو حكاية ما، وإذا لم ترَ ورقة أمامك بل شجرة صنعت من أخشابها أوراق الكتاب فاعلم أنّ حالتك لا تسرّ أحد. وإذا أغمضت عينك اليسرى وقرأت كلّ شيء باليمنى ولم تر الحروف لأنّها قد بهتت وامّحت وتحوّلت الورقة إلى رماد فاعلم بأنّك تعاني كثيرًا. أنتَ في هذه الحالة تقرأ بعينيّ فايشا العمياء وقد تكون هذه الحكاية غير مستديمة كما قطعة الورق وهذا العالم الآيل للذبول.

مكتبة
t.me/soramnqraa

روحٌ حيّة

أشهى أنواع الكمثرى هي تلك التي تنضج فوق قبر سولوكا. اكتشفها العجوز لوحده وحين ينتهي القيظ مع انتصاف شهر آب، الذي يلي عيد رقاد السيدة أم المسيح لا يعرف الرجل للسكينة مطرحًا. يحمل كيسه وعبوة عرق وقليلا من الزيت لإضاءة القنديل وكبريت ثمّ ينطلق إلى المقبرة. هو آخر الأحياء في القرية لكنّه لا يشتكي من هذا الواقع، عدا عن ذلك لا يوجد من يسمع شكواه إذا أراد البوح به. القرية المجاورة ليست بعيدة وعدد منازلها لا يزيد على خمسة أو ستة منازل وفيها حانة غالبًا ما يرتادها الرجل العجوز. أنا الآن القرية وعمدتها يثرثر وحيدًا ويضيف. - إذا متّ في هذه اللحظة فإنّ القرية برمّتها تفنى.

بيته يجاور نهاية المقبرة وبما أنّه آخر من تبقّى من الأحياء في القرية، فإنّه غالبًا ما يتجوّل ما بين القبور في مخيلته خلال الليالي الطويلة الساهدة والطاعنة في العمر. يحاول أن يسترجع في ذاكرته وجوه الموتى وأسماءهم ويعرف جيدًا أيّ صليبٍ ومتى مال على جانبه وموضع انكساره واللون القاتم الذي أصابه نتيجة لهطول الأمطار. يمضي لياليه يعدّ القبور بدلا من رؤوس الضأن حتى يتمكّن من الخلود لوقتٍ قصيرٍ من النوم.

لكن الوقت قد حان لكمثرى سولوكا. وضع محتويات عشائه في كيس إضافة لقارورة عرق وكبريت، قاد معزته المسنّة ودخل المقبرة التي تحولت إلى حديقة نباتية معشوشبة وافرة. كان الأحياء حين يدفنون الأموات الجدد

لا ينسون غرس أزهار الششمير والتوليب في السابق، وآخرون يزرعون شجيرات مثمرة، بعضها مدّ جذوره ونما أشجارًا كبيرة أثمرت الكمثرى والخوخ والجوز والتفاح والبرقوق والكرز الحامض. كما نمت وأثمرت شجرتا تين ورمان وشجرة غار.

كلّ هذه الثروة النباتية بدت بشكلٍ ما بستانًا كريمًا دنيوي. كأنّ هناك تحت الأرض بمترين ما تزال القرية تقوم بأعمالها الاعتيادية، تعتني بأراضيها الزراعية الصغيرة لتكلّل جهودهم بالثمار. كان العجوز على قناعة من هذه الحقيقة ويعشق شجرة سولوكا. وفي كلّ سنة يقطف ويجمع حبات الكمثرى الكبيرة الصفراء العذبة الريّانة التي تذوب في الفم من تلقاء نفسها ولم تكن بالمناسبة لاذعة أو حامضة كغيرها.

- إيه يا سولوك، ها أنت قد أثمرت الكثير من الكمثرى، برافو. صاح العجوز ما أن وصل إلى قبره. نظّف القنديل المكسور من غَزَلِ العنكبوت الذي أحضره قبل عام، أخرج من الكيس بعض الزيت، ملأ القنديل وأشعل عود الثقاب وتركه فوق حجر. ثمّ فتح قارورة العرق وسكب بعضا منه فوق القبر. امتصّت التربة الجافّة الظمئة المتشققة على الفور القطرات ثمّ صبّ المزيد وقال. - أنتَ عطش للغاية يا سولوك. وأخيرًا سكب جرعة كبيرة في جوفه.

ليس مصادفة أن أشهى أشجار الكمثرى قد ضربت جذورها تحديدًا في هذا المكان. قبل أن يُتوفّى سولوكو كان خبيرًا في تطعيم الأشجار. موهبته متركزة في يديه، وإذا ما لامس شجرة برية تلد ثمرة طيبة. كيف كان يستخدم قلمه وما التعاويذ التي يقرأها، لا أحد يدري! لكن الأشجار التي تلد وتنمو بعد ذلك تبدو عجيبة وفريدة لم تشهدها المنطقة منذ سنوات طويلة، وتراها قد أينعت وامتدت غصونها مثقلة بالثمار.

يقولون إنّه كان على علم بعلاج النساء العاقرات، ولأنّه وسيم طويل القامة فإنّ ألسنة اللئيمين تؤكّد أنّه وأينما مرّ طعّم أثمر ليس الشجيرات قط. كان العجوز وسولوكا أصدقاء بل وأكثر من أخوين، عاشا معًا حياة العزوبية ومعًا أنهيا الخدمة العسكرية، وتزوجا أختين قبل عشرين عامًا.

كان يعاني من مرض غريب لم يفهم كنهه وطبيعته أحد وسولوكا لم يعِرْه اهتمامًا كبيرًا. يتنفّس بصعوبة بالغة كآلة تعمل بالبخار ويفشل بابتلاع جرعة سُلوك. (سُلوك: مرادفة لمفردة شهقة باللغة البلغارية) هذا ما كان يردّده المسنّون ومصدر لقبه أيضًا. سولوكا بدوره وبعناد يليق به يصفّر بفمه ليخفي صعوبة تنفّسه الذي يعاني منها. يقوم باستهلاك هذه المعاناة بأفضل وجه من خلال التصفير. قضى نحبه وهو يصفر وآخر ما سمعه المتواجدون حول سرير موته كان صفيرًا بعيدًا ضعيفًا للغاية كما القطار الذي يذوب في المدى.

كان سولوكا يعاني من عيبٍ واحد عدا عن صعوبة التنفّس، فهو متطلّب للغاية تجاه زوجته ولم يفتأ يراقبها طوال الوقت. لم يدرك آنذاك معنى كلمة «غيور». طالما لاحقته النساء الجميلات (وهو أيضًا لم يبدِ ممانعة تذكر) ازدادت ريبته بإمكانية ممارسة زوجته للخطيئة ذاتها، وكثيرًا ما كان يتحدّث عن هذه الثيمة. كلّ هذا جال مرارًا في خاطر العجوز أثناء ملء كيسه بثمار كمثرى سولوكا. ثمّ تراه يجلس متعبًا في ظلّ الشجرة، يربط المعزة إلى صليب قاتم اللون ويترك ثمرة كمثرى إلى جانب القنديل، يخرج سكّينه ويحزّ قطعة من الثمرة ثمّ يرفع عبوة العرق ولا ينسى أن يسكب بضع قطرات فوق التراب.

– كيف تقضي أوقاتك يا سولوكا؟ قال العجوز في محاولة لتبادل أطراف الحديث وأردف. – فلتعلم يا سولوكا أنت هنا في أحسنِ حال. ثمّ قصّ عليه معاناته مع قيظ الصيف والجفاف الذي لم تشهده القرية من قبل. أخبره أنّ

كلّ شيء في الأنحاء قد جفّ وأنّ الدولة كلّها احترقت كساق سنبلة، وجفّ حليب معزته من شدّة الحرّ. ما أن أخذ بامتداح مقام سولوكا الرطب تحت الأرض حتى سمع جلبة خلف الصليب، تجمّد العجوز في مكانه كأنّه سمع للتوّ صوت أنفاس صديقه الثقيلة المألوفة. هي سحلية انسلت ما بين العشب الجاف وبعد لحظات تبادل الطرفان نظرات فضولية، كلّ منهما يحدّق في عينيّ الآخر. ضحك العجوز ورسم بيده إشارة الصليب وسرعان ما اختفت السحلية بسرعة كما ظهرت.

- المكان مليء بالسلاحف والأفاعي؟ قال العجوز وسكب قطرات أخرى فوق التراب مترحّمًا على روح سولوكا، ثمّ صمت ورفع العبوة وقال بصوت هامسٍ خفيض.

- اسمعني الآن يا سولوكا، أتيتُ لأخبرك بأمرٍ كان بإمكاني أن أحدّثك به في السابق لكنّي لم أجد المناسبة المواتية والآن لم يعد في العمر متّسع. يبدو أنّني سأرعبُ الغربان بموتي هذا الشتاء ليبقى السرّ دفينًا في صدري. أنا لا أحبّذ ذلك وأريد أن يبقى قبري نظيفًا لذا يجب عليّ أن أبوح لك بما يعتمل في صدري. عدا عن ذلك، لا أدري في أي طرف من المقبرة سيرمون بجثتي. وكما تعلم عشت في طرف القرية ومن الواضح أنّي سأدفن في نهاية المقبرة أيضًا، لذا لا يوجد ما يبرّر صراخنا بين طرفي المقبرة. أرجوك تستمع إليّ من دون مقاطعتي.

تناول العجوز جرعة أخرى وأردف قائلا.

- في السنة السابعة بعد وفاتك استضفت أرملتك في بيتي وعشنا معًا أحد عشر عامًا. أرجوك، إيّاك الآن أن تغضب. سبع سنوات مضت منذ رحيلك وأنا وهي وحيدان في القرية. لم أعاشرها كزوجة، لم ألمسها. أتسمعني يا سولوكا؟

سولوكا صامت كأطرش. وحده نور القنديل اهتزّ بشدّة.

- لم أخبرك بذلك حتى اللحظة لأنّني على علم بطبعك الحادّ. لكن فلتعلم زوجتك امرأة صالحة. أمضينا معًا أحد عشر عامًا حتى توفيت في هذا الصيف. وخلال نزاعها بقي اسمك على فمها وتصيح «كيف أخبره بهذه الحقيقة؟». لقد أفزعتَ هذه المرأة يا رجل. اسمع، أرجو ألا تناصبها العداء هناك في العالم الآخر. يمكنك إذا أردت أن تصبّ جام غضبك عليّ عندما أحضر إلى عالمك. أنا قادر على التحمّل، لكنها هي امرأة صالحة مسكنية، عليك أن تدرك ذلك. في الأثناء اضطجعت المعزة بهدوء إلى جانب الحجر وفرُغت زجاجة العرق.

ظهرت ريحٌ خفيفة من إحدى الجهات، والعجوز الذي تحرّر من سرّه الكبير غفا ونام مرتاح الضمير متّكئًا على شجرة الكمثرى كما لم يفعل منذ وقتٍ طويل. حلم بأنّه قد توفّاه الأجل، يبدو كأنّه قد مات لكنّه ما يزال على قيد الحياة. يجلس تحت شجرة الكمثرى ومن حوله سهوب شاسعة على مدّ البصر، والنيران قد أتت بألسنتها الزرقاء على كلّ شيء من حوله. سولوكا بدوره يجلس بجواره ويصفر كالعادة وهو في الوقت نفسه سولوكا لكنّ عينيه اللتين تنظران إليه هما لسلحفاء صغيرة. تحدّقان به وتحدثناه. «أترى الآن يا صاحبي، هذه هي نيران جهنّم» يصيح به سولوكا ضاحكًا بعينيه الكالحتين والنيران على بعد خطوة منه. هاهو لسان السعير يلدغ قليلا أذن العجوز.

جفل الرجل وفتح عينيه ليرى المقبرة قد دبّ فيها حريق كبير. سقط القنديل واحترقت الأعشاب الجافّة باستحكام والمعزة تحاول جاهدة أن تتحرّر من رسنها خائفة مذعورة. قفز العجوز من مكانه، حرّرها من رباطها ثمّ أجال بصره من حوله بلا حولٍ ولا قوّة ولم يجد أيّ أثرًا لروح حيّة.

حاول أن يدوس بقدمه قبضة نار كانت في طريقها إليه، لكنّ الدخان

انبعث من حذائه واشتمّ رائحة احتراق النعل. ألأشواك تنحني وتتبدّد تحت وطء الحريق مهدّدة والمقبرة برمّتها تبدو مستسلمة بسكون وهنأة صريحة جليّة للنار المستعرة. خطر للعجوز فكرة يائسة أن يركض تجاه البيت ليحضر ماء، لكن ما أن يصل إلى هناك وما أن يملأ الدلو الكبير من مياه البئر ليعود بما تبقّى لديه من طاقة حتى تكون النيران قد أتت على المقبرة وما فيها وأخذت تنهش المنازل النائية من القرية.

ترك العجوز الدلو على الأرض، ركض تجاه سور المقبرة من الجهة الأخرى، حيث النيران ما تزال خفيفة وأخذ ينادي ويردّد أسماء الموتى: إيفانكا، تاناسي، سولوتشي، ديمتشو الصغير، ديمتشو الكبير.. استمرّ يردّد الأسماء بتواتر وسرعة كما كان يفعل مساء قبل أن يخلد للنوم. هو لا يدري لمَ يفعل ذلك؟ هل يرغب بتحذيرهم ليفيقوا من سباتهم ويهربون أو ليحملوا الدلاء لإطفاء الحريق. كان يرفض فكرة احتراقهم هكذا في أثناء رقادهم أبرياء في أبديّتهم.

لا فائدة ترجى فقد وقع المحظور. جلس العجوز على حجر ونظر إلى القرية. رأى كيف أتت النيران بداية على بيته وكيف تسلّقت على الجدار المائل الأعوج لتحوّل الستائر إلى رماد ثمّ تطحن إطار النافذة وتعيث بجنون داخل الغرفة. لم يشعر بالأسى لبيوت القرية المحترقة، يجلس على الحجر ويردّد في البعيد سبحة من أسماء أولئك الذين بقوا في المقبرة وسط الحريق.

لاحظ أهالي القرية المجاورة فيما بعد النيران المشتعلة، حضر رجال إطفاء المدينة في ساعات المساء، ليدوّنوا تفاصيل الحريق والدمار الذي تسبّب به. لكنّهم وجدوا هناك عجوزًا يجلس على حجر ليس بعيدًا عن المقبرة وقد اسودّ وجه من الرماد المنتشر وأذناه مشرئبتان يهزّ رأسه بتناغم مردّدًا:

- احترق كلّ شيء يا سولوكا، لم تبقَ روحٌ حيّة واحدة.

سَبْكُ القرط البلغاري

(حُلم)

أحلم بأذُنٍ بلغارية كبيرة بدأت نموّها في تجاويف الخمسينيات وستينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، أحلم بها حين أنصتُ في أوقات الليل المتأخّرة لاستقبال موجات قناة راديو أوروبية حرّة. حلمت بتلك الأذن مستمرّة بنموّها ملتصقة بالأرض مباشرة فوق السكك متسائلة (هل يأتي شيءٌ ما من هناك وهل سيتوقّف هنا؟) وأرى في كابوسي كيف يعبر القطار وبعض الرؤوس الصمّاء تتناثر فوق الحصى.

أحلم بالأذن البلغارية العصيّة، ونموّها البطيء في ظلّ عملية التجاذب والشدّ التي يمارسها الجسد الرقيب المخيّم فوقها. جسد يتكوّن من إصبعين فقط، الإبهام والسبابة.

أحلم بالأذن البلغارية الطيّعة التي غُرس فيها قُمْعٌ يسكبون عبره بهدوء كلّ ما يشاؤون. الأذن البلغارية بلا قاع، وهذا النمط من الآذان كان يتمتع يومًا ما باحترام كبير في الصين. الآذان الكبيرة هناك تعدّ سمة للحكمة والخلود. حتى لاوتزو كان يمتلك أذنين كبيرتين تبلغان 7 إنش حسب أقوالهم لكنّ ماو لم يمتلك أذنًا بلغارية.

في العام 1989 لم تصدّق الأذن البلغارية نفسها في إحدى المناسبات السارّة (تبيّن فيما بعد أنّ هذه المناسبة سابقة لأوانها) واستبدلت في بادئ

الأمر المظاهرة بتجمّع ثمّ استبدلت الطاولة المربّعة بأخرى مستديرة[1].

أحلم بأقراطِ الأذن البلغارية المخدوعة. قرط تلو آخر، فشل إثر فشل، يا للرعب! مساحة تكفي لمزيد من الأقراط، ثمّ بدا كأنّ الأذن قد سئمت، الأذن نفسها سئمت وطبلتها تدقّ.. وتصرخ، أحلم بآذانٍ طويلة ممتدة جميعها قد تلاصقت، الأذن إلى جانب الأخرى لتؤدّي دبكة شعبية وكلّ منها يشدّ ما أمكنه ذلك. دبكة شعبية بلغارية ولا أحد يرى حلقة قرطه بل يحدّق في قرط الآخر. أذن، أ – ذن، أ – ذن – ذن...

ثمّ اختلط وارتبك كلّ شيء في حلمي، كأنّهم يدقّون الطبول وتظهر الملائكة يقدّمون لها الأبواق. وينادي وقتها أحدهم بيوم القيامة. والبعث يردّد: «من يمتلك أذنًا فليسمع...». لم يفهم أحد أنّ النهاية لم تحن بعد لكنّها العتبة المعدّة للعبور *إلى سماءٍ وأرضٍ جديدة*. ولم يبدِ أحد رغبة لاستيعاب أنّ البعث الفاشل هو الأسوأ لأنّه سيتكرّر مرارًا إلى الأبد[2]. والبعض يركض بحثًا عن ملجأ وآخرون يتجمّعون لأداء رقصة شعبية.

عندها شاهدت في حلمي مغارة وسمعت صوتًا ينادي: تعال لترى أين يسبكون القرط البلغاري ولم يكن في الأنحاء أحد، والمغارة أو الأذن تردّد رجع الصوت، وما أن هبطت حتى رأيت مطرقة هائلة وسندان عظيم. مطرقة وسندان الأذن. الأذن تسبك قرطها بنفسها. كدرع آخيليس الذي

---

(1) شهدت بلغاريا خلال العام 1989 مرحلة انتقالية من النظام الاشتراكي إلى ما يعرف باقتصاد السوق وعاشت سلسلة من الحراك السياسي وتجمّع النخب حول طاولة مستديرة لوضع دستور جديد للبلاد وإيجاد حلول للمسائل الحيوية التي تهمّ البلاد.

(2) يشير غوسبودينوف في هذه القصّة إلى الأحداث التي واكبت المرحلة الانتقالية من الاشتراكية إلى اقتصاد السوق والمبادئ الديمقراطية عام 1989، لكن العملية بقيت مبتورة ولم تنجح بالتوصّل إلى النتيجة المرجوّة، واصفًا إيّاها بيوم القيامة أو البعث الذي سيتكرّر إلى الأبد.

يحتوي على كلّ شيء، يحتوي على المطابخ والأقماع والماكرين والمخدوعين وأولئك الذين شاركوا في الدبكة والرقص الشعبي، جميعهم كانوا هناك وأولئك الذين اختفوا عن الأنظار. لم تنسَ الأذن شيئًا، وحتى الأمير الصربيّ الخالد الشهير ماركو كراليفيتش لم يكن بقادرٍ على تحييد القرط البلغاري. القرط البلغاري الهائل.

2000 - 1950

سروال الحكاية الأبيض

بدأت هذه الحكاية وانتهت بحدثٍ يتعلّق بغسيل ملابس. لا بدّ أن تاريخه يعود إلى نهايات سبعينيات القرن الماضي، أذكر أنّي كنت في التاسعة أو العاشرة من العمر وكنّا آنذاك نعيش في بيت صغير أمامه ساحة في إحدى أصغر المدن البلغارية، تقع في ظلال سفح «ساكار» أصغر الجبال في البلاد. كانت تلك المدينة يومًا ما شهيرة برعاية أهلها للنياق بدلا من الحمير وغيرها من الحيوانات المسخّرة للركوب والنقل، لكنّ آخر ناقة نفقت في ستينيّات القرن العشرين. عشنا في تلك البلدة بالقرب من أصغر جبال بلغاريا (صغير لكنّه يبقى جبل كما يردّد الأهالي) في منزل صغير يحتوي على غرفة ومدخل وساحة عامرة بحوض من الطماطم وعند سور الحديقة ترتفع شجرتا كرز يتدلّى بينهما حبل غسيل وصفّ مكتظ من زهور التوليب الهولندي (فخر والدتي، زهور ليلكية كصبغة النيلة).

في أحد الأيام انشغل والدي بنشر الغسيل على الحبل بين شجرتي الكرز حين اقترب منه جارنا العمّ كوستادين. مفهوم «الجار» لا يليق بالعمّ كوستادين وهو رجل مسنّ كريم موقّر بلغ السبعين من عمره، ولد ثريًا أرستقراطيّ ويعدّ أحد أمهر المحامين في البلدة ويرتدي بُردة عدّت أسطورة ويعرف كذلك باسم بلزاك. نال هذا اللقب لاستخدامه عطرًا فرنسيًا فاخرًا من جهة ولأنّه قرأ كلّ أعمال بلزاك باللغة الفرنسية. إنجاز يستحقّ الذكر والتسجيل في موسوعة غينيس للأرقام القياسية ولم يكن من المتوقع أن يحتلّ مكانه شخصٌ آخر لاحقًا. لكن ما الذي كنّا نعرفه نحن عن بلزاك؟ عدا عن

أنّه زيرُ نساء يحتسي الكثير من القهوة خلال انهماكه بالكتابة. أم أنّه يكتب كثيرًا خلال احتسائه للقهوة.

على أيّة حال استقرّ الرقم 42 في رأسي منذ ذلك الحين. هل ارتبط الأمرُ يا تُرى باثنين وأربعين كتابًا أم اثنين وأربعين كوبًا من القهوة يحتسيها الأديب يوميًا. لا أذكر جيّدًا لكنّ الرقمين يوحيان بمزيدٍ من الاحترام والتقدير الموجّه كذلك للعم كوستادين. عليكم أن تلاحظوا أنّ أحدًا لم ينادِهِ باسم التحبّب المصغّر العم كوتسي. بل كان وبقي حتى النهاية العم كوستادين بلزاكا. أن ترتدي آنذاك بُردة فهذا موضع تبجيل وتشريف ومؤشّر واضح للثراء في الوقت الذي كان الناس يقدّرون فيه أيضًا ارتداء المعطف والفراء الشتوية والبلوزة. أذكرها حتى يومنا هذا، بُردة طويلة بنّية اللون ذات ثنية أنيقة عند الصدر تُحزم بثلاثة أزرار من اللؤلؤ وحزام أنيق مهدّب في نهاياته يذكّر بنهايات ذيل الأسد.

الحقيقة أنّه بدا رجلا مريبًا مرتديًا تلك البُردة في نظر جارنا في الناحية اليسرى وهو رجل أمن ترفّع لرتبة رقيب وكان الجميع ينادونه باسم فيلكس إدموندوفيتش (نزولا عند رغبته) واختصارًا ينادونه تشيكيست (عميل استخباراتي) ويتحدّثون عنه بصفة الغائب فاتماكا. كان ينتمي لتلك الفئة من رجال الأمن الذين لا يظهرون أبدًا من دون بزّتهم الرسمية وراهنتُ سرّا مع أخي أنّ بيجامته التي يخلد بها للنوم مزيّنة بالرتب العسكرية ومزوّدة بجيب داخلي يتّسع لمسدس صغير. بل إنّ أخي كان على قناعة من نومه بقبّعة عسكرية، إذ يتوجّب عليه إذا ما حلُم بمثوله أمام الملازم الأول (ما الذي يمكن أن يحلم به الرقيب) أن يؤدّي التحية العسكرية حسب النظام الداخلي والتحية بلا قبعة عسكرية تعدّ انتهاكًا للقانون وأنا على بيّنة من هذه الحقيقة.

عند بوابة مدخل منزله أمر بكتابة عبارة بحروف حمراء (يتوجّب على التشيكيست أن يمتاز بعقل مستنير وقلب متوقّد وأيدٍ نظيفة) وذيّل النص باسم فيلكس إدموندوفيتش دزيرجينسكي. في إحدى الأمسيات من شهر أيلول أقدم شخصٌ مجهول على حذف حرفين من كلمة متوقّد وأضاف حرفًا آخر لتتحوّل الجملة إلى «قلب وغد» بدلا من «قلب متوقّد»، منذاك أصبح فيلكس إدموندوفيتش متشكّكًا يرتاب بتصرّفات كافّة أبناء البلدة خاصّة جيرانه. يتداول الأهالي فيما بينهم بأنّه كان يتناوب طوال موسم الخريف في ساحة البيت وينام أمام البوابة الخارجية، حتى بدء هطول وتراكم الثلوج لقناعته أنّ المجرم يعود دومًا إلى مسرح الجريمة حسب المراجع العلمية المختصّة، لكن هذه حكاية أخرى.

هكذا إذا، يقع منزلنا في منطقة منعزلة ما بين منزل فيلكس إدموندوفيتش (إلى اليسار) ومنزل العم كوستادين بلزاكا (إلى اليمين) وثلاثة منازل في منتصف الشارع الذي يحمل اسمًا رنّانًا «سيرغيينكو». طالما كنّا على بيّنة من شخصية وطبيعة بلزاك لكنّنا نجهل حتى يومنا هذا كلّ شيء عن أسرار سيرغيينكو، لذا أتمنّى عليكم وأنا جادّ في هذا العرض، إذا عرفتم بعض التفاصيل والمعلومات عن هذا الشارع أن تتواصلوا معي وسأستمع إليكم بكلّ سرور، فأنا على قناعة من أنّ الأسماء ليست مصادفة خاصّة بما يتعلّق بالشارع الذي يترعرع المرء في أنحائه، سواءً كان سيرغيينكو، ماكارينكو أو كريفولاك. كلّ شيء ذو أهمية بما يتعلّق بموضوع التربية خلال مرحلة الطفولة.

أترون، ما أن يُذكر اسم بلزاك حتى نغرق في التفاصيل والحيثيات. انشغل والدي يومًا بنشر الغسيل في ساحة البيت على الحبل المعلّق ما بين شجرتي الكرز حين اقترب بلزاك من السور، وقف من الجهة الأخرى يرتدي

البُردة إيّاها، شعر والدي بالحرج وهو يحمل الطَشت مرتديًا فانيلا وسلسلة الملاقط تتدلّى من فوق كتفيه. عندها همس العمّ كوستادين بنبرة حاسمة: كيف يمكن لرجل وسيم سويّ مثلك أن يخزي نفسه ويحمل طشت غسيل وملاقط في وضح النهار كامرأة؟ خجل والدي وضاق بالموقف واكتفى بعد تلك الحادثة بنشر الغسيل في ساعات الليل فقط. كان عليه أن يوافق بطريقة أو بأخرى ما بين جمالية حياة كوستادين والوحش كاريبديس[1] المستوطن في وعي أمّي.مكتبة سُر مَن قرأ

أتخيّله وقد وضع المصباح اليدوي بين أسنانه ليبدو فزّاعة ضدّ القطط، يظهر خلسة حاملا بين يديه طشت الغسيل المصنوع من الزنك متجّهًا إلى حبل الغسيل بمحاذاة جدار منزل العمّ كوستادين. كان من الممكن لهذا الحال أن يستمر طويلا، لكن في إحدى الأمسيات تمكّن المتيقّظ دومًا فيلكس إدموندوفيتش من رصد إشعاع نور مريب، وبصفته تشيكيست محترف لم ينقضْ على المعني فورًا بل فرك يديه النظيفتين وقال: آه يا بلزاك التافه، حان الوقت لأدقّ عنق أهلك. كان على قناعة تامّة من أنّ البرجوازي العجوز يتسلّل ويختبئ كجرد في ساحة بيته ليخربش ما يحلو له، ليسرق المسدّسات ويهرّب الزيوت، في تلك الأثناء كانت الزيوت شحيحة وثمينة (كيف إذًا تمكّن من شراء هذه البُردة الجزيلة).

شكّل في الليلة التالية فرقة مكوّنة من أربعة رجال أمن (كامل الفرقة المفرّغة لحماية المدينة) ترأسها فيلكس إدموندوفيتش، تموضعت الفرقة حول المنازل، لكن لم يتجرّأ أحد على الظهور طوال الليل (لم تغسل أمّي الملابس في ذلك اليوم) وعند الفجر انفكّ قوام الفرقة سرًا. تكرّر الأمر في الليلة التالية وفي الليلة الثالثة جلب تشيكيستا كلب أثر ملحق للعمل في قطاع الأمن

---

(1) كاريبديس: وحش أسطوري ورد ذكره في ملحمة الأوديسة للشاعر الإغريقي هوميروس

في مدينة إلخوفو. عند منتصف الليل خرج والدي بطشت الغسيل وتوجّه للحبل الممدود عند الجدار، أضاء المصباح وفي تلك اللحظة ارتفع نباحُ الكلب. إشتعلت الأضواء الكاشفة وتجمّع رجال الأمن من حوله برئاسة فيلكس إدموندوفيتش.

تصوّروا هذه اللوحة الحيّة الجسيمة، اقترب الكلب محاولا الانفكاك من رسنه والرجال الأربعة مصوّبين الأضواء الكاشفة تجاه والدي، فيلكس يقف على بعد خطوتين إلى الأمام منهم منحنيًا قليلا، يحمل بإحدى يديه مسدّسًا ويده الأخرى إلى الخلف كأنّه على استعداد لرمي قنبلة وقد طالته في تلك اللحظة شظية. أخيرًا ألقى والدي بطشت الغسيل أرضًا وكان في تلك اللحظة يرتدي سروالا أبيض وسلسلة الملاقط تتدلى على جانبيه.

كان بإمكاني التنقّل بين تلكما الهيئتين وبعجهما بإصبعي. أنارت الأضواء نوافذ منازل الجيران، وهرولنا أنا وأخي وأمّي إلى عتبة البيت. بعد ثانية أو ثانيتين انتعش المشهد وامتلأ حيوية قبل أن ينهار بأكمله. همهم فيلكس إدموندوفيتش بما يشبه الاعتذار لأبي الذي عاد من دون الطشت إلى البيت وللمرّة الأولى أوصدنا الباب الخارجي. بعد تلك الأمسية تسلّح والدي بالشجاعة وصرّح أمام والدتي بأنّه لن ينشر الغسيل ثانية ولم يغادر المنزل لثلاثة أيام متواصلة. نال فيلكس إدموندوفيتش منذ تلك الحادثة مزيدًا من الألقاب أمّا العمّ كوستادين فهزّ رأسه مردّدًا: كوميديا إنسانية، كوميديا إنسانية..

هذا كلّ ما هناك، كيف يمكن لهذه الحكاية أن تتطوّر وهي تعود إلى نهاية سبعينيات القرن الماضي في بلدة صغيرة بالقرب من أصغر الجبال بمحاذاة شارع فرعيّ صغير يحمل اسم سيرغيينكو الرنّان، على بقعة منسية من الأرض تجاور إلى الشمال فيلكس إدموندوفيتش وإلى اليمين بلزاك. في تلك

الأنحاء وفي تلك اللحظات تحديدًا ما بين الزيّ العسكري الرسمي وبُردة برجوازية الهيئة يمكننا خطف نظرة للوجه الحقيقي للحكاية. لا يحتاج الأمر لتضاريس وجه بل يمكن لسروال أبيض أن يقصّ الحكاية، فكيف لنا أن نطالب بالمزيد.

حكاية أخيرة عن التسعينيات

تسلّل أحدُ الأشخاص إلى حانة قرية مجاورة واجتمع مع ثلّة من أترابه هناك، كانوا قد خدموا معًا في الجيش. تذكّر واستعاد كلّ منهم اسم الآخر والذكريات المشتركة بينهم (آه، لقد أصبنا بآفة النسيان) وعند منتصف الليل افترق كلّ في طريقه. وحده رفض المبيت في تلك القرية (أنا لست ثملا) وانطلق مغادرًا. حدث ذلك في نهايات الخريف وقطراتٌ من المطر البارد اللاذع تهطل من دون توقّف في منطقة راديتشكوف.

(ما أن أبلغ البيت حتى أبتلّ بالكامل) قال الرجل في سرّه. مشى قدر ما استطاع والكثير من الكلاب تنبح تجاهه حتى غادر محيط القرية، وفجأة شعر بموجة شديدة من التعب والإرهاق، مكّنته فقط من الخروج عن الطريق قبل أن ينهار على الأرض ويغيب في نومٍ عميق.

قبل الشروق بقليل تخلّل حلمه نحيبٌ وعويل، جفل الرجل مرعوبًا، تلفّت حوله وأدرك بأنّه قد أمضى ليلته في مقبرة القرية. والعويل لدزينة من العجائز المرتديات السواد يقتربن أكثر وأكثر من المكان. إنّه سبتُ الأموات، تلك المناسبة الحزينة الهامّة المخصّصة لتبجيل وتذكّر الموتى خلال شهر تشرين الثاني، هذا ما يفسّر عويل النساء.

كان الرجل في منتهى التعاطف، ضرب جبينه على الفور على القبر الذي استيقظ للتوّ فوقه وطفق بالبكاء بأعلى صوته. تفاجأت العجائز من هذا البكّاء المبكّر الغريب عن القرية، أحطن به كالغربان ينقرنه هنا وهناك.

عجبي، من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

حضرت إلى قبر جدّي. أجاب الغريب والدمع يملأ عينيه. من أيّ قرية يا روحي؟ لم تتركه العجائز بسلام. من أين حضرت؟ هذه ليست مقبرتكم يا ابني! لم تصمت العجائز لحظة واحدة. عندها قال الغريب تلك العبارة وهي محور الحكاية التي تستحقّ الوقت المهدور لسردها وأوراق تدوينها: (أها، ثمّ حدّق الرجل مشدوهًا في وجوه النساء وأضاف «وأنا أيضًا أستغرب، أبكي وفي الوقت نفسه حزني ليس خالص!»).

غاوستين

أفضّل أن أقدّمه لكم على النحو التالي. التقيته للمرّة الأولى في أثناء إحدى المنتديات التقليدية في أوائل شهر أيلول وعلى شاطئ البحر (غرّة أيلول هو الوقت الأمثل لهذا النمط من المنتديات). كنّا نجلس في مطعم صغير بمحاذاة الشاطئ، جميعُنا كتّاب وعُزْب وأصدرنا للتوّ مؤلفنا الأول في أبهى العمر ما بين العشرين والخامسة والعشرين من العمر. والنادل يجهدُ بتدوين أعداد أقداح العرق والسلطات والمقبّلات وفاكهة البحر التي طلبناها. حين أنهينا طلباتنا حلّت بضعُ لحظاتٍ من الصمت، سأل النادل قبل أن يبتعد «أهذا كلّ شيء؟»، سمعنا عندها صوت غاوستين للمرّة الأولى الذي على ما يبدو لم يتمكّن من ذكر طلبه.

– قشدة من فضلك.

قالها بثقة شخص يطلب على الأقل وزّة معدّة بالبرتقال أو بمشروب الليكور الأزرق. بعد فاصل من الصمت الثقيل الذي طغى على المكان لم نستمع خلاله سوى لصوت الريح القادمة في ساعات المساء من جهة البحر وتُراوح في الأثناء عبوّة بلاستيكية مكانها.

– عفوًا! هذا ما تمكّن أن يتفوّه به النادل لمجرّد أن ينطق بشيء وقد تملّكه إحساس أنّ نكتة فجّة تكمن في الطلب المتواضع للرجل.

– مجرّد قشطة لو سمحت. أعاد غاوستين طلبه بذات النبرة والاعتداد.

- تقصد قهوة مع القشدة أو...

- لا، القشدة ولا شيء سوى ذلك.

انطبعت على وجه النادل سيماء تحمل معنى (إيه، لكلّ شخصٍ طبائعه) وابتعد. نحن كذلك لم نكن أقلّ دهشة من النادل لكنّ الأحاديث حول المائدة سرعان ما استعادت زخمها وحيويتها، ثمّ غطّت الأواني والكؤوس الملاءة وكان آخر ما أحضره النادل صحن خزفيّ صغير بان عليه خيطٌ ذهبيّ مذهّب وفي منتصفه كما بدا لي قطعة القشدة التي طلبها غاوستين. عندها صاح أحدُهُم «بصحّتكم» ووسط رنين زجاج الكؤوس الرخيصة لاحظت كيف أمسك غاوستين القشدة بإصبعين، أزال غطاء العبوة الصغيرة حتى المنتصف بحذر، رفعها برفق أمامه ليردّد معنا في الوقت نفسه تحية الشلّة معتذرًا عن عدم تمكّنه من قرع علبة القشدة البلاستيكية بكؤوسنا.

شرب جرعة صغيرة للغاية. شرب ببطء قطرة تلو الأخرى طوال ذلك المساء. لماذا عليّ أن أسرد عليكم هذه الحكاية التي قد تبدو تافهة وعابرة؟ أنا على ثقة من أنّ الشلّة قد فسّرت (هذا إذا ما حاولت تأويل الحكاية أساسًا) طلب غاوستين كنزوة أو محاولة ليظهر نفسه مختلفًا عن الآخرين. أبدأ هذه الحكاية لأنّها سجّلت أوّل لقاءٍ لي مع غاوستين وأنا شخصٌ يصرّ على متابعة الأحداث منذ بداياتها.

علّمتني تجربتي المتواضعة أنّ اللقاء الأول يمنحنا دومًا المزيد من المعلومات أكثر مما نعتقد ونتوقع. حاولت التقرّب منه في اليوم التالي وخلال الأيام القليلة المتبقية من الأسبوع وتخلّينا تمامًا عن أعمال المنتدى وأمضينا الوقت بالتنزّه والسباحة. لم يكن كلانا ثرثارًا لذا قضينا معظم الوقت في صمت متبادل وممتع للغاية. ومع ذلك عرفت بأنّه يعيش وحيدًا، والده توفّاه

الأجل منذ وقتٍ بعيد ووالدته حاولت مغادرة البلاد بصورة غير شرعية للمرّة الثالثة قبل شهر إلى كاليفورنيا، ويأمل هذه المرّة أن تنجح هي في مسعاها.

عليها أن تقطع في هذه الأيام الحدود المكسيكية حسب الخطّة التي أعدتها. عرفت أيضًا بأنّه يحاول أحيانًا كتابة القصص عن نهاية القرن الماضي، هذا بالضبط ما ذكره وأنا بالكاد كتمتُ فضولي وأظهرت له بأنّ هذا أمرٌ طبيعيّ للغاية ما دام الماضي يهمّه. ذكر بأنّه قد تجوّل وزار بيوتًا قديمة مهجورة، بحث في الخرائب والأطلال، نظّف السقوف وبحث عن الصناديق القديمة وجمع الأسمال والقطع الأثرية القديمة. وبين الحين والآخر ينجح بتسويق بعضها لأحد المحال المختصة أو لأحد المعارف، هكذا يتمكّن من كسب لقمة عيشه.

أعتقد أنّ طلبه المتواضع للغاية في تلك الأمسية هو دليل على أنّه لا يعوّل كثيرًا على بيع الخردوات والقطع النادرة. لذا وحين أسرّ لي بأنّه يمتلك في الوقت الراهن ثلاث علب من لفائف التبغ ماركة «توماسيان» المنتجة عام 1937 أنيقة من الصنف الفاخر، طلبت منه على الفور بصفتي مدمن على التدخين شراء العلب الثلاثة.

«هل أنت جادّ؟» قال الرجل. أجبته بأنّني طالما تمنّيت تدخين لفائف التبغ «توماسيان» المعتّقة، انطلق هو على الفور إلى خيمته. ألقى عليّ نظرة منتشية وأنا أشعل عود الثقاب الألماني الأصيل من العام 1928 (هدية مجانية مع اللفائف) وسألني عن أجواء وروح العام 1937. «لاذع» أجبته. لفائف السجائر كانت حقًا لاذعة بلا فلتر ينبعث منها دخان كثيف. لا بدّ أنّ الدخان المنبعث مرتبط بعمليات القصف في إقليم غرنيكا الإسباني الذي شهده العام نفسه. أجاب غاوستين بصوت خفيض. - أو لأسباب تعود

للسفينة الهوائية «هيندينبيرغ» التي تعدّ أكبر منطاد في العالم، تحطّم على ما أعتقد في السادس من شهر مايو على ارتفاع مئة متر فوق الأرض قبل أن يتمكن من السقوط وعلى متنه 97 مسافرًا.

جميعهم كانوا يبكون على الهواء مباشرة. ويلتصق صدى مثل هذه الأحداث بأوراق التبغ..

كنت على وشك الاختناق، أطفأت اللفافة ولم أضف على ما قلته شيئًا وغاوستين يتحدّث كأنّه أحد الشهود الذين نجو بأعجوبة من تلك الحادثة. قرّرت أن أسأله عن اسمه. ضحك هو وقال: اسم غاوستين أفضل من غاريبالدي، أليس كذلك؟ ثمّ أخبرني على عجل كيف أنّ والده أصرّ على أن يطلق عليه اسم غاريبالدي لأنّه كان مغرمًا به، يحمل صورته برفقة وثيقته الشخصية مع أنّه لا يعرف عنه شيئًا سوى أنّه أحد أكبر ثوار القرن التاسع عشر.

أمّا عن إنجازاته البطولية في الأبينيني وعن ثلّة البلغاريين الذين التحقوا بغاريبالدي فقد أكّد بأنّه سيبذل جهده للبحث والتنقيب عن صلة القرابة البعيدة مع البلغاري غيورو ناتشيف (غيورو الثائر أو الغاريبالدينو) الذي قاتل ثلاث مرات في صفوف القائد غاريبالدي.

أمّي المرأة الهادئة الحكيمة أطلقت عليّ اسم غاوستين هي التي أمضت ثلاثة فصول في كلية الفلسفة (يبدو أنّها من أنصار القديس أوغسطينوس) احتفظت ببعض أحرف القدّيس وهكذا حصلت على الاسم المركّب ما بين مطلع المسيحية والثورة في مرحلة لاحقة.

أنا أحبّ هذا الاسم، قال. - لكنّ أبي لم يستسلم لرغبة أمّي طوال الحياة وبقي يناديني باسم غاريبالدي. بهذا أوجز المعلومات المتبادلة بيننا طوال

الأيام الخمس أو الستّ للمنتدى الذي اتّخذ طابع المغامرة. أذكر بالطبع بعض فترات الصمت الهامّة للغاية لكن يصعب عليّ أن أقصّ تفاصيلها. آه، نعم، أجرينا محادثة قصيرة في اليوم الأخير بعد تبادل العناوين (عندها فقط أدركت أنّ غاوستين يسكن في بيت مهجور في قرية تقع في سفح جبال البلقان، وللمرّة الأولى عرفت اسمها). لا يوجد لديّ هاتف قال معتذرًا لكنّ الرسائل تصلني دائمًا.

تهيّأ لي بأنّه وحيدٌ بلا نهاية وغير منتمي. تلك هي الكلمة التي خطرت لي في تلك اللحظة. لا ينتمي لشيء في هذه الدنيا وبكلمات أدقّ لا ينتمي لهذا العالم. كنت متأكّدًا من أن الناس الذين يلتقون به في تلك القرية إذا تواجدت حقًا يطقطقون بألسنتهم عند مروره أسفًا وحسرة. ألقينا نظرة إلى المغيب البديع وأطلنا الصمت ومن خلفنا ارتفعت من بين الأعشاب سحابة من الذباب. تابعها غاوستين بأنظاره وقال «إذا كان هذا المغيب هو مجرّد غيهب آخر للشمس فهو لهذه المخلوقات التي تعيش ليوم واحد يعني مغيب حياتها أو شيء من هذا القبيل. أجبت قائلا بأنّ هذا محض غباء أو مجرّد استعارة مستهلكة. نظر إليّ مستغربًا وفضّل الصمت، لكن وبعد بضعة دقائق أردف قائلا: إنّها لا تعرف معنى الاستعارات.

لم أتوقّع آنذاك أنّ لقاءنا ذاك هو الأخير. شهد شهر تشرين الأول والثاني من العام 1989 الكثير من الأحداث التي باتت في الوقت الراهن معروفة ومدونّة حدّ الوجع، لذا لن أزعجكم بسرد تفاصيلها المملة.

عدا عن كلّ هذا كان لديّ العديد من المشاكل الأخرى، فقد كان كتابي الثاني على وشك الصدور وتزوّجت واصطففت في الطوابير ولم أجد الوقت المناسب للكتابة لغاوستين، والكثير من الأعذار التافهة لكنّي غالبًا ما كنت أتذكّره، وهو أيضًا لم يراسلني.

استلمتُ منه أوّل بطاقة تهنئة في الثاني من شهر كانون الثاني عام 1990. بطاقة عيد ميلاد مزيّنة بصوة السيدة كروز مرتدية الأبيض والأسود ومكتنزة بعض الشيء تُذكّر بجودي غارلاند. السيدة كروز تمسك عصا سحرية راسمة على رأسها شرارة تشير لحلول العام 1929 مكتوبًا بأحرف كبيرة. على ظهر البطاقة طابع بريد يحمل صورة جلالة الملك بوريس الثالث وختم يرافقه شعار المملكة. ذهبت على الفور إلى النافذة معتقدًا أنّ غاوستين قد وضع البطاقة للتوّ في صندوق بريدي وينظر إلى منزلي من الأسفل.

لم يكن من المتوقّع السماح لأيّ مكتب بريد بالتعامل مع رسالة تحمل الطابع والختم الملكي. لكني لم أرَ أحدًا على الرصيف. نظرت إلى ظهر الغلاف ثانية وقرأت بخطّ غاوستين المائز الأنيق عنواني وتمنياته لي بالسعادة. الحبر كان قد جفّ بصورة جيّدة كما خطّط الرأس الحادّ لكلّ حرف مركزي وعصاته المائلة وإليكم ما كتبه:

مبارك حلول العام الجديد 1929، ومبارك أعياد الميلاد، أتمنّى أن يصلكم خطابي هذا وأنتم بخير وبصحّة جيدة.

أتجرأ أن أصف نفسي صديقكم

غاوستين

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلّ هذا كُتب بالخطّ الذي عُرف في تلك الحقبة من الزمن بكلّ المحسّنات الخطية المُتاحة بترسيم الأحرف الصوتية والأنفية وأحرف العلّة. لكن آلة طباعتي «ماريتسا» أُنتجت في التسعينيات وهي لا تملك ذاكرة وآلية لصفّ الأحرف الغابرة، لذا لم أجد من حيلة للردّ على تمنّياته سوى بالأحرف التقليدية. جلست على الفور وكتبت له رسالة طويلة، أوضحت له فيها المشاغل التي ابتلعتني واعتذرتُ عن صمتي الذي امتدّ طوال الفترة الماضية.

كما شكرته في ملاحظتي الأخيرة على المفاجأة السارّة وأضفتُ بأنّي أقيّمُ عاليًا الجودة في تخطيط الرسالة.

تلقيت الردّ في بحر الأسبوع نفسه. ظرفٌ أصفر من الورق المقوّى الذي لم يعدْ متواجدًا في الأسواق وطابع يحمل شعار الدولة بقيمة ليفا واحدة. فتحته بعناية لأجد فيه ورقة خضراء باهتة ذات علامة مائية وملأ النصّ جهة واحدة من الورقة، هل توجد ضرورة لأخبركم بأنّه قد استخدم مجدّدًا الخط البديع ذاته ملتزمًا بقواعد «ستويان أومرتشِفسكي»[1] القديمة الصارمة للتدوين.

كتب يقول بأنّه لا يغادر البيت أبدًا وأنّه بصحة جيدة. ولديه اشتراك في الصحيفة اليومية (زورا - فجر. المترجم) التي يصدرها بموضوعية السيد كرابتشيف واشتراك آخر في مجلة (زلاتوروغ - القرن الذهبي. المترجم) ليبقى على صلة مع مسيرة الثقافة. معتبرًا هذه المعلومات المتعلقة بالعالم الخارجي كافية بالنسبة له. سألني عن رأيي بشأن تجميد العمل بالدستور وحلّ الملك اليوغوسلافي ألكسندر في السادس من العام الحالي لمجلس الشعب، الذي جاء على ذكره في صحيفة «زورا» في اليوم التالي. أفاد أيضًا بأنّه يعمل على إنجاز عمل ضخم يحمل عنوان «أحلامُ النباتات».

كان قد قرأ مذكرة جاء فيها إنّ البساتين الفرنسية تمتلك أيضًا حياة نفسانية ومشاعر متنوّعة بما في ذلك الحبّ. كما إنّ هذه النباتات مولعة بالنوم وتنتج على الأرجح أحلامًا يصعب قراءتها وتفسيرها في الوقت الحالي. أنهى رسالته

---

(1) ستويان أومرتشِفسكي (1885-1941) أنهى دراسة الأدب البلغاري، شغل منصب وزير التربية والتعليم، حافظ على خطّ التدوين البلغاري القديم. قام بسلسلة من الإصلاحات أهمّها إعفاء الكتب المدرسية من الرسوم، والتدريس الإلزامي حتى انتهاء مرحلة الثانوية العامة.

بملاحظة عبّر من خلالها عن اعتذاره لعدم فهمه لعبارة «أقيّمُ عاليًا الجودة في تخطيط الرسالة».

قرأت رسالته عدّة مرات، قلّبتها بين يدي، شممتُ رائحة الورق لأستشفّ أثرًا لسخرية ولكن من دون طائل. ربّما أبدى غاوستين رغبته ببدء لعبة ما ويدعوني للمشاركة فيها بلا قواعد ونظم مبدئية وبلا تلميح أو تقديم أيّة سبل للفكاك منها. إيه، حسنًا. قررت المشاركة أو إظهار فهمي لمبادرته على الأقل، ولأنّي لم أكن على معرفة بالأحداث التي شهدتها السنة اللعينة 1929 فقد أمضيت الأيام الثلاث التالية في المكتبة للتنقيب والبحث في متن النشرات القديمة لصحيفة «زورا»، وكانت قد حُمّلت في الأرشيف على أفلام دقيقة.

قرأت ما كُتب آنذاك عن الملك ألكسندر. وألقيت نظرة على أحداث الساعة «طرد تروتسكي من الاتحاد السوفييتي»، «الألمان يقبلون بميثاق كيلوغ بريان»، «موسوليني يوقّع اتفاقية مع البابا»، «فرنسا ترفض منح اللجوء السياسي لتروتسكي». بلغت في قراءتي لعنوان «انهيار وولستريت» الصادر بتاريخ 24 تشرين الأول. كتبت رسالة قصيرة لغاوستين في أثناء تواجدي في المكتبة، بدت لهجتي فيها جافّة نسبيًا، أعربتُ من خلالها عن رأيي (الذي يتوافق بصورة مريبة مع رؤية السيد كرابتشيف) بشأن الأحداث التي تشهدها يوغوسلافيا، كما رجوته أن يرسل لي بعض ما يجهد في كتابته آملا فهم حقيقة الأحداث بين أسطر أوراقه.

وصلتني رسالته التالية بعد شهر ونصف، اعتذر لإصابته بإنفولنزا حادّة للغاية لم تمكّنه من القيام بأيّ نشاط. لكنّه يشعر بتحسّن حاليًا وأخبرني بأنّه لن يرسل بأيّ من أعماله لأنّها ليست جاهزة بعد. سألني بالمناسبة إذا ما كانت فرنسا ستستقبل تروتسكي؟ فكّرت طويلا بوضع حدّ لهذه الحكاية ولأكتب

له رسالة تعيده لصوابه، لكنّي تركتُ له المجال مفتوحًا ليقدمَ هو من تلقاء نفسه على هذه الخطوة.

ذكرتُ له بعض النصائح للتغلّب على مضاعفات الإنفلونزا، هو على أيّة حال قرأ تفاصيلها في صحيفة «زورا»، أوصيته كذلك بالحدّ من نشاطه خارج المنزل والإكثار من غسل قدميه يوميًا بالمياه الساخنة مضافٌ إليها كمية كبيرة من الملح. كما أبديت شكوكي بشأن استقبال فرنسا وألمانيا أيضًا لتروتسكي. عبّر هو في رسالته التالية عن تقديره لحدسي السياسي فقد رفضت فرنسا عمليًا استقبال المنشق السوفييتي تروتسكي قائلا «أنت تمتلك حدسًا سياسيًا هائلا».

كانت هذه الرسالة أطول من سابقاتها لأسباب مرتبطة بإعجابه واندهاشه، أولا لصدور الكتيّب الرابع لمجلة «زلاتوروغ» نشرت فيه الشاعرة «باغريانا مجموعة من قصائدها التي لا تقلّ روعة عن المجموعة المنشورة في الكتيّب الأول قبل ذلك بسنتين..». سألني إذا تشرّفت بمعرفة هذه النجمة الجديدة الصاعدة شخصيًا في عالمنا الذي يسيطر عليه الأدب الرجولي، وأضاف بأنّها توصفُ بمنتهى الحسن والجمال.

الأمر الثاني الذي أثار إعجابه هو عثوره على جهاز راديو ماركة «تيليفونكن» وجده في سطوح بيتٍ مهجور ويحاول الآن إصلاحه. لذا رجاني أن أرسل له لمبة راديو «فالفو» من مستودع جاباروف المتواجد على شارع «أكساكوف» رقم 5، ولتسهيل المهمة كتب لي رقم هاتف جاباروف وجده منشورًا في إحدى الصحف ورقم الهاتف 544. بات الراديو شُغْله الشاغل ووصف لي بالتفاصيل المملة مظاهرة شهدتها برلين بثّت على الهواء مباشرة عبر موجات راديو الدكتور رايسِر ذي اللمبات الاثنتي عشرة ويعمل على الموجات القصيرة بتحكم أوتوماتيكي لاسلكي، «كما يمكن من خلاله

الاستماع للحفلات الموسيقية حتى في أميركا، أتصدّق ذلك؟».

قررت عدم الرد بعد تلك الرسالة حتى يكشف لي هو بنفسه ما تبقّى من التفاصيل. انشغلت بأموري الخاصّة لكنّي تلقيت رسالتين أخريتين أكثر إيجازًا من أيّ وقتٍ لاحق. كان غاوستين قلقًا ومتوتّرًا وتساءل إذا ما كان قد أهانني برسالته وتساءل عن أسباب عدم الردّ على خطاباته. رجاني أن أخبره بعنواني الجديد إذا غيّرت مكان إقامتي وأن أكتب له. كنتُ مصرًا على موقفي مع أنّ فضولي امتزج بمشاعر الذنب التي كانت تراودني بين الحين والآخر، ومع ذلك أجّلت مراسلته.

هكذا انقضى نصف عام وفي أعياد الميلاد وإثر تبادل مجموعة كبيرة من بطاقات التهنئة التقليدية من الأصدقاء والأقارب، أصبت بالدهشة حين عثرت على بطاقة بخطّ غاوستين. أرسل لي مجددًا بطاقة مفتوحة عبارة عن مائدة مستديرة ملأى بثمار الجوز والذرة والثوم والفليفلة الحمراء وفي منتصفها عبوّة نبيذ تقليدية صغيرة من الخشب.

نهايات البطاقة مزخرفة بعناية حسب المدرسة الانعزالية وعلى ظهر البطاقة كتب غاوستين بخطّه الفريد عبارة التهنئة بحلول العام الجديد 1930، متمنيًا أن تكون سنة خير لي ولعائلتي. *ما زلت أتجرّأ أن أصفَ نفسي صديقكم المخلص غ.* شعرت بالأسى، إذا كانت هذه لعبة فقد طالت إلى مدىً بعيد وبلغت حدّ الجنون، فقد بلغنا العام 1991 مع أنّي لست متأكّدًا تمامًا من هذه الحقيقة. ذهبت إلى الغرفة الأخرى وسألت زوجتي احترازًا عن تاريخ السنة الجديدة. صوّبت نحوي نظرة غريبة كأنّها بهذا تؤكّد لي بأنّ طرائفي ليست دومًا على الرحب والسعة.

حسنًا، قلت في نفسي: لربّما بدأت هذه الحكاية كلعبة مجرّدة طوباوية غير واضحة المعالم ابتلعت فيها بعد غاوستين بالكامل ولم يتمكّن هو من الخلاص

من براثنها. أدرك أن الناس قد عاشوا بأريحية خلال الثلاثينات أكثر بكثير من التسعينيات. لكنّي غير قادر على المضيّ في هذا السبيل. لم أردّ على خطابه هذه المرّة أيضًا وهو لم يكتب لي بعد ذلك. لم يرسل خطابات في أعياد رأس السنة التالية والتي تبعتها. بهتت هذه الحكاية تدريجيًا ولولا الرسائل المعدودة التي تلقيتها وأحتفظتُ بها حتى اللحظة لما صدّقها أحد أبدًا ولم أتمكّن من قصّها عليكم في الوقت الراهن أيضًا.

لكن القدر شاء غير ذلك. قبل شهرٍ تحديدًا وفي الأول من شهر آب من الألفية الجديدة، وصلتني رسالة جديدة من غاوستين. غلبني طالع سوء ولم أسارع بفتحها فقد انقضت عشر سنوات منذ تلقيت بطاقة التهنئة الأخيرة. أصابتني الحيرة، هل عاد الرجل لرشده بعد كلّ هذا الوقت يا تُرى؟ قرأت في طيّ الرسالة بضعة أسطر أنقلها لكم حرفيًا.

المعذرة للإزعاج مجدّدًا بعد مضيّ كلّ هذا الوقت لكن يمكنك أن ترى بأمّ عينك الأحداث التي نعيشها. نقرأ الصحف وأنت لا شكّ قد أدركت بحدسك السياسي الذي لا يخطئ المجزرة التي تدقّ أبوابنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حشد الألمان جيوشهم على الحدود البولندية. لم أخبرك حتى اللحظة أنّ أمّي يهودية (تذكّر ما حدث في النمسا في العام الماضي وتذكّر ليلة البلور في ألمانيا)، يبدو أنّه لا رادع لهذا الرجل. قررت وقمت بكلّ ما يلزم لأمضي غدًا صباحًا إلى بولندا لأنضمّ إلى صفوف المتطوعين.

من الصعب

مواصلة العيش على هذا الحال

ملاحظة: يبدو أنّ والدي كان محقًا بشأن اسمي.

والآن وداعًا

صديقك غاوستين - غاريبالدي

28 تموز 1939

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

ما قبل الحكاية 5

الليلة الثامنة 9

الرجل ذو الأسماء المتعدّدة..... 16

الخطوات الأولى 25

قصّة ثانية أخرى 31

حكايتي مع محطّة قطار 38

كريستين المرأة التي تلوّح من القطار 40

ذُبابة في المِبْوَلة..... 44

عن طعم الأسماء..... 46

عن سرقة الحكايات..... 50

الهدية المتأخّرة..... 55

لام من وحي الجريمة 62

روح عيد الميلاد لِخنّوص 67

كابوس امرأة..... 71

الثالث..... 74

فاوانيا وأذن الفأر 79
فايشا العمياء (حكاية بلا نهاية)..... 83
روحٌ حيّة 87
سَبْكُ القرط البلغاري (حُلم) 93
سروال الحكاية الأبيض 96
حكاية أخيرة عن التسعينيات..... 102
غاوستين 104

وحكايات أخرى

بعد رائعته فيزياء الحزن يقدم غيورغي غوسبودينوف في هذه المجموعة لمحة من التعقيد السردي السحري لبورخيس ونفحة من الواقعية الجريئة للحياة قبل الشيوعية وما بعدها في أوروبا الشرقية. هذه القصص، في أصلها قصص طبيعية، تكشف لنا العالم في حركات الحياة المختلفة: ألم الحب (لقاء الركاب في قاعة المحطة)، محادثة بين شخصين غريبين، مغامرات الطفولة وغيرها من هموم وضحكات. لكنها تستلهم روحها من الفولكلور والخرافات الشعبية البلغارية فتأخذ منحى عجائبياً سريالياً في بعض الأحيان، وتتشبث بالواقعية البحتة بكل حيويتها وهشاشتها في مواضع اخرى وتقدم نظرة بانورامية على قدرات واحد من أبرع الكتاب الأوربيين في القرن الواحد والعشرين.

أثر

تصميم الغلاف:
أحمد الصباغ

مكتبة
t.me/soramnqraa